عُرسُ بغل

الطاهر وطّار

روايـة



الطاهر وطار

عرس بغل

رواية

كانون الاول ١٩٧٨

الاهـــداء

الى احسان طبري عضو المكتب السياسي لحزب ((تود)) ، المنفي عن وطنه طيلة سبع وعشرين سنة .

أقرا في كفك يا رفيق : جبالاً من نار حمراء ، وايواناً اسود يتاكل . واراك على مهر ، تشق ايران ، وتضيئه بنجمة في لون النار .

طه و

مراحل الرحلة

عندما اجتاز الحاج كيان ، سياج الصبار المحيط بالمقبرة ، ووجد نفسه ، يتسلل بين القبور ، في دربه المعتاد ، تساءل :

ـ ترى من اكون اليوم . المتنبي ، او حمدان قرمط ، او زكرويه الدنداني ، او احد خلفاء بني عباس او احد غلمانهم او قـــوادهم ؟

وقبل ان ينزل الى خلوته ، وقف كعادته يدرس الوضـع : السمـاء صاحية ولا مبرر لتكدرها كامل اليوم على ما يبدو . ريح شمالية خفيفة تلطف جو الخريف الثقيل . الخـــق المربع على وضعه ، التينة في قعره ، تنكمش على نفسها بين الصخرتين المملاقتين . القبور المتراصة قانعة بحجمها . المقبرة المهجورة لا تجد ما تسكت به ذبابها الضائع ، سوى حمار هـرم أجرب سطيح في مكانه عند السياج منذ اسابيع .

انزل سلته بخيط الى القعر ، وراح يستمين باغصان التينة الهرمة على النزول ، مؤكدا لنفسه ان الحذر مطلوب ، وان النهار لا يـــزال طويلا .

تناول سلته ، بعد ان لف الخيط وربطه بالعروة . واتجه نحو الصخرتين . انحنى واقحم نفسه بينهما ، وسحب السلة اليه ، وراح يفرغها . بسط المنديل الاصفر ، ثم اخرج علبة حلوى الترك ، وقارورة العسل ، وغليون الحشيش الطويل ، وعلبة اخرى . تحوي تحت طبقة حلوى الترك ، كتلة متراصة من الحشيش .

فتح العلبتين والقارورة ، وتناول الغليون ، وراح يفحصه بدقة ، كانما يراه للمرة الاولى .

ـ الخيط . الطريق . الجسر . السلطة التي تمنحني الهوية .

قال ، ثم قبله ، وشحنه بالمادة واوقد النار ، وراح يمتص في ظمأ الرضيع .

راحت المسافة بين قعر الخق وبين حافات فمه الكبير ، تتغير شيئا فشيئا .. بدت ببعدها الطبيعي : حوالي المترين او يزيد ، ثم تأخر الفم ، بعد النفس الاول عدة امتار . بعد النفس الثالث تأخر القعر . بعد النفس الخامس تاخرت التينة والصخرتان ، والحاج كيان وسلته . بعد ذلك ، راحت كل المسافات تتباعد ، وانفتحت في راسه وفي قلبه ، هوتان ، لا اول ولا آخر لهما . وفي الحين الذي شعر فيه بالتلاشي والذوبان ، شعر بأنه يحتل كل ما هنالك من مكان او زمان .

ـ ترى من اكون اليوم ؟ المتنبي ؟ حمدان قرمط ؟ زكرويه الدنداني ؟ المعتصم ؟ المنتصر ؟ المعتز بالله ؟ موسى بن بغا ؟ وما يهم ؟

ليس في الجبة سواي . سوى رحى في حجم الارض

تطحن ، والالم يقطر .

بدات المرحلة الاولى من الرحلة .

ـ هؤلاء الموتى المساكين ، لم يعد احد يذكرهم . يا لهم من غرباء . كانوا هنا ، يسعون ويلهــون ويأملون . تساقطوا كالذباب واحدا اثر اخر ، اتوا بهم قطع لحم باردة ، دفنوها في الارض ، وولوا هاربين ، تاركين اياها للدود .

المساكين . المساكين .

سقطت دمعتان من عينيه . تناول ذرات من حلوى الترك وضعها على لسانه ، واستغرق في الامتصاص .

برزت فتاة تلتحف ثوبا ورديا من خلف الضباب . كانت رائعة الجمال . ظلت واقفة لحظات ، ثم تبسمت . تلاشى ثوبها . بانت كتمثال من المرمر .

كانت ذرات الحلوى تطلق لذة غريبة ، وكان لسانه يتنقل ببطء من اليمين الى الشمال ، بينما ظل بصره عالقا بالفتاة العارية امامه . كانت في السابعة عشرة . كل شيء فيها يشع بالحيوية والعنفــوان .

ـ هكذا جئت . هكذا عدت .

ـ من اين جئت ، والى اين عدت ؟

تساءل فلم يجبه . قهقهت فجأة . قهقه بدوره فجأة . ظل لحظات طويلة ، يقهقه . كان مغلوبا .

لقد انفجر بركان ضحك في صــــدره . حاول ان يشير الى الفتاة بالاقتراب ، الا ان الضحك لم يعطه الفرصة . أومأ برأسه ، الا ان الايماءة لم يكن لها اي معنى . قهرها الضحك .

لم يدر كيف اغمض عينيه ، لينقطع الضحك فجاة . استلقى في سرير مفروش بالحرير . وثبت الفتاة الى جانبه . وضعت فمها في فمه ، وراحت تطلق لذة غريبة ، اقتحمت راسه وصدره ، وشرايينه ، واطلقت العنان لاتصال ارجواني بينهما .

فتح عينيه . كان لسانه يلعق العسل من اصبعه ، كانت الفتاة في وضعها لا تزال .

ـــ هكذا جاءت . هكذا عادت . المسكينة . جاءت وعادت . من أين والى اين . لا يهم . ليس هناك سواي . طاحونة عرضها السماء والارض ، تطحن القلوب . لو انني اتمكن من دعوتها الى الجلوس معي .

حاول أن يرفع يده فلم يفلح . حاول ان ينطق فتعذر عليه . حاول أن يغمزها فجمدت عيناه .

ـــ المسكينة كما جاءت عادت . شمعة اتقدت وانطفأت ودفنت . اودعوها هنا ، وولوا . هكذا .

تطاير شعر الفتاة . برزت الديدان من كل فتحة في بدنها ، انهمرت الدموع فجاة من عينيه . استغرق في بكاء صامت في حين راح الجسد المرمري يتاكل . يتحول الى ديدان بيضاء وزرقاء وحمراء .

ـــ هكذا صارت . هكذا صاروا . هكذا نصير . هذا كل ما هنالك .

اختفت الديدان . لم يبق سوى هيكل عظمها يقف منتصبا . بدات المرحلة الثانية من الرحلة .

الهيكل العظمي يتوالد : واحد ، عشرة ، مائة ، الف . العالم كله هياكل منتصبة ، متماسكة بلا شيء . خذ مكانك بين

الهياكل ، وقم بدورك . انهض . انهض . تعر ، تفسخ ، شعرك.
ينسل . جمجمة راسك تغلي بالديدان . الديدان تأكل اذنيك وعينيك وانفك ووجنتيك . الديدان تنزع عنك اللحم .

ـ لا . لا تصر مثلنا . نريدك كما انت .

قالت ملايين الاصوات الصادرة عن الهياكل ، فلم يجب . لماذا الاجابة ، حين لا تكون قاطعة . لو ان الديـدان هي التي تجيب . لو ان لديها ما تقوله .

بسرعة ، انضم الهيكل العظمي الى اخوانه . ارتفعت قرقرة كبيرة . الهياكل تتحرك . انها ترقص . ارقص معها . لا بد من ذلك . رقصة الهياكل لا تكون الا جنونية ، موسيقى الفراغ لا تكون الا صاخبة . انطلق انطلق . انها تتناطح . افعل مثلها ، انطح من صادفك . انطح بقوة ، لا شيء يؤلمك ، الديدان انتزعت الالم . اصفع باليدين كل من تستطيع . اعط خدك ، للصفع ، انهم يفعلون ذلك . هذا العالم يتحرك بلا قوانين ، او دوافع ، او رغائب ، فانطلق . انطلق في الاستسلام ، وليرتفع الصخب ولتعل القرقرة . الهياكل العظمية تطير . انها ترتفع الى عنان السماء . السماء تمتلىء بالهياكل القادمة من كل مكان ، زوابع زوابع ، كالنحل او الجراد . طر بدورك طر . انك معها . واحد منها . ولا غاية ولا قانون . الفضاء امتلأ . لا مجال هنالك للحركة او للطيران ، تراص معها . انتظر ما سيكون . انها تتصـل ببعضها . الارجل تتصل . الرجل اليمنى تتحرر منك وتنضم الى هيكل الرجل الضخمة . اليسرى تلتحق بها . الفخذان يلتحمان . العجز ايضا ، الصدر بدوره ، العنق ، الراس .

الهيكل الجبار يتكـون .

يملأ العالم كله . كل الفضاء . هذا هو الهيكل المنتظر ، ما اسعد ان تكون منه . انت ذرة لا ترى بالمجهر ، في هذا الهيكل الضخم الذي يسد كل فراغ وانت كل هذا الهيكل . ما دمت لا تحدد موضعه منك ، فأنت هو ، وهو أنت . انت الجبة ، والجبة انت . وما دمت لا تتحرر منه ، فانت لا شيء بالنسبة اليه .

ان الدور يعاد . يعاد بأشكال مختلفة ، وهذا عزاء .

الهيكل يحاول آن يتحرك . التصميم يسري فيه . لا مجال . لا فضاء . الحركة متعذرة ، التصميم يسري في كل الذرات . يصل اليك ، انت بدورك تود لو تتحرك . الذرات تحاصرك . الفضاء يحاصر كل شيء . هذا هو القانون الوحيد .

لا مجال . لا مجال .

الجمجمة ترتفع . الفضاء يتحول الى رحى . الهيكل الضخم في رحى . لا يقاوم . لا يهمه . انت ايضا لا تقاوم . لا يهمك شيء ، لا قانون ولا غاية . ليس هناك سوى جمجمة الرحى . انه يتلاشى ، اننا نتلاشى . الجسم الصلب يتحول الى ذرات . الذرات تملأ الفضاء .. فكا الرحى يدوران متعاكسين بسرعة . الذرات سعيدة . انت ايضا سعيد . الجمجمة تهدأ ، الذرات تسبح متداخلة ، الهياكل الصغيرة تتشكل . هذه رجلك اليمنى ، هذه اليسرى . هذان فخذاك ، هذا عجزك ، هذا عمودك الفقري ، هذا صدرك ، هذا عنقك ، هذا رأسك .

انت هيكل عظمي بين الهياكل ، في جب عظيم وسط المقبرة المهجورة .

اللحم يعود اليك شيئا فشيئا . الهياكل الاخرى تختفي

واحدا اثر اخر .

المرحلة الثالثة تبتـــدىء .

حشـا الغليون ، وأضرم فيه النار ، ثم تنـاول كمية من الحشـيش ، مزجها بالعسل ووضعها تحت لسـانه .

الدوي بدأ بعيدا ثم اخذ يقترب شيئا فشيئا . انه هـو . عزرائيل . يتفقد زبائنه . انه غاضب اليوم اكثر مما يجب على ما يبدو . ضربات عصـاه السريعة تهتز لها الارض . لقد طاف بجميع القبور ، وهو يقترب مني الآن . سينهال علي بعد حين . هذا ظله يغطي المكان . التينة تتنحى . الصخرتان تتباعدان . لا شـيء ، يحول بيني وبين عصا عزرائيل .

اعتراه خوف وهلـــــع شـديدان . أغمض عينيه ، وأحنى راسـه ، وقبض ركبتيه وذراعيه ، وراح ينتظر متوقعا الضرب من لحظة لاخرى .

ـــ مـــن هنـــاك ؟

دوى صـوت عزرائيل ، مالئا الفضاء . فكـــــر ان يبادله الحديث ، ان يقول له : انا الحاج كيان . في الحين الذي اساوي كل شيء ، لا اسـاوي شيئا اطلاقا . انا كل ما في الجبة . الخوف يمنعه من الكلام . لسـانه يأبى الحركة .

ـــ وهل انت ميت جديد ؟

ـــ لا ، انا لست ميتا جديدا . انا ميت منذ الازل . انا مت قبل ان يخلق العالم كله . حتى قبل ان يكون هنالك موت .

فكر ان يجيب ، غير ان الضرب بالعصـا الغليظة انهـال عليه . تناول عزرائيل راسـه ، وضعها جانبا ، وراح يضربها ، عد حتى الالف . اعاد الراس الى موضعها ، وراح يتناول بقية

الاعضاء ، عضوا ، فعضوا ، وعندما توقفت الضربات ، وعادت الاعضاء الى موضعها ، شعر بالانعدام .

انت جزء من الارض ، من التراب والوحل والمعادن .
لا تحس بالكينونة الا عندما يتسلط عليك الالم .

المهم انك تحررت . مثلما حررك الدود ، حررك عزرائيل ، فانطلق الان . اقتنع بوجود العالم . اقتنع برشاقته ، وبتناسقه ، كن جزءا منه . انت ايضا رشيق متناسق . تناول ذرات من

الحلوى . العق اصبع عسل .
آه . ما اجمل ذلك . ما اروعه .

كل شيء الان سحري ، كل شيء الان يحتمل الشـك واليقين . كائن وغير كائن . الظلال والثمار . الحرائر والغيد الاماليد والولدان المخلدون . بيادر الحشيش ، ووديان العسل . لا كد ولا ارهاق . السير بالنية ، والطيران بالنية ، والاكل بالنية ، وكل شيء بمجرد النية .

يكون ولا يكون . لا يكون ويكون .
يتحول كل شيء الى حضرة ، الى الارادة العليا .
— انت ايضا ارادة عليـا .
بلغ الصوت الى مسمعيه ، تساءل في سره ، لمن هـذا الصـوت .
لارادة عليـا .
اتاه الجواب ، فاوما براسـه مصدقا .
— كـن . كـن .
— من اكـون ؟

فكر ان يتساءل ، الا ان مرآة كبرى وضعت امامه ، فراح

يتأملها في كسل وخدر .

كانت المرحلة الرابعة من الرحلة تبتدىء .

ـــ ابو الطيب المتنبي ، او حمــدان قرمط ، او زكرويه الدنداني او المعتصم او المنتصر او المعتز بالله ؟

ـــ لا . كن انت . كن انت . فليس هناك سوى الرحى ، ذات الفكين المتعاكســي الدوران ، تطحن القلوب وتفرز الالم .

ـــ ومن انا ؟ هل انا شيء ؟ هــل استطيع ان اكون مرة اخــرى .

ـــ انت الارادة العليا . العليا .. عليا .

أنفاس السبوت

وقفت العنابية في البهو ، يداها في خصـــرها ، وراسها مرفوع ، وبصرها يجول بسرعة في ابواب الغرف في الطـــابقين الاول والثاني . تتفقد البنات ، وهل هن على استعداد تـــام لاستقبال يومهن .

عنـــدما لاحظت ان بعض البيوت مغلقة ، وقدرت ان صاحباتها ، لا شك ، لا يزلن نائمات ، هتفت بصـــوت في نبرة معينة ، توحي الى البنات ، بأنهن مقصودات جميعهن :

ــ كيف لم يظهر الحاج كيان بعد ؟ الساعة العاشرة بيـــد انه لا احد يهتم بالوقت اليوم . ماذا جرى يا ترى ؟

ــ اليوم السبت . أنسيت ؟

انبعث صوت من الطابق الاول ، فردت العنابية حالا :

ــ ومن نسي انه السبت . اتحسبينني من اللائي لا يزلن نائمـــات .

ــ انا تعبة قليلا وهذا كل مـــا في الامر . لست نائمـــة .

قالت أحداهن وفتحت باب غرفتها ، ووقفت فيه ، وهي تتثاءب ، وتتمطى .

ـ الحاج كيان لا يظهر يومي السبت والاحد .
ـ الحاج كيان ككبار الموظفين .
ـ الحاج كيان يبغض العسكر وزبائن السبت والاحد .
ـ اعرفن ما تقلن عن الرجل يا عاهرات .
ـ العفو يا لالة الحاجة .

كانت لهجة الرد الاخير ساخرة لاذعة ، ومع ان العنابية لم نتأثر بها ؛ فقد كانت تتوقع مثل هذا التعليق . آثرت ان تفتعل معركة صغيرة تثور خلالها ضجة كافية لبعث الحياة في جميع البيوت .

ـ انت يا بنت . لازمي حدودك . اللسان الطويل للقص . اذا ما قررت ان اكسر راسك لن ينفعك احد .

ـ من تعنين باحد ؟

ـ انها تعني ـ خاتم ـ طبعا ، ومن تريدينها ان تعني غير ـ هزيك ـ الجديد .

ـ انا اعرف ما اقول ، والفاهم يفهم .

ـ اذا كنت تعنين « خاتم » حقا ، فقوليها صراحة . انه مستعد لتصفية حساب جميع الناس ، ومن كانت له ـ حسبة ـ معه ، يتقدم بها .

ـ انا « قليلة الوالي » .

ارتفع صوت من الطابق الاول بمقطع الاغنية ، وفي لهجة ساخرة ، اثار القهقهات من جميع البيوت وانتزع ضحكة من العنابية ذاتها ، فبانت اسنانها المذهبة .

لقد اطمأنت الى ان الحياة انبعثت في محلها . وعما قريب يتوافد العساكر ، وتلاميذ الثانويات ، والمتسوقون من الضواحي

والبوادي ، وفي حدود الثالثة تبـــدا السهرة . ينتصب المغني والقصابان وسط البهو . ترتفع الالحان الظامئة ، ومن حين لآخر . تبرز راقصة ، تطوف بالجالسين ، ثم تختطف احدهم وتصعد به الى الغرفة . تتناثر قوارير الجعة ، وتفرغ صناديق وصناديق . تبيع ضعف البنات بدلات اتصال ، بالاضافة الى رسوم الدخول .

تبيت الليلة مزدهرة .

خاتم الذي لم يستول على الميدان الا منذ ثلاثة اسابيـــع ، يبدو انه متفهم للوضع ، لكن من يدري ؟ حياة النفوس تقول انها تسيطر عليه ، وانها بلغته مطالبي ، خاصة عدم اثارة اي مشكل يومي السبت والاحد . لكن من يدري ؟ اوه ، لا بد ان ينجـــو سبتان واحدان في الشهرين ، وفي هذا كفاية .

هذه طبيعة الشغل . من يرم الاصطياد لا يخش البلل .

طمانت نفسها ، ثم اتجهت نحو المشرب ، فاسحة المجال ، لتعليقات البنات ، ونكاتهن ، واهازيجهن .

ــ الحاج كيان يعود صبيحة الاثنين ، وكأنه شخص آخر .

ــ ترى اين يقضي يوميه .

ــ لعل بين أطفاله وزوجته ؟

ــ وهل الحاج كيان صاحب اسرة ؟

ــ ومن يـــدري ؟

ــ لا احد يعلم من أمره سوى انه حج الى كيان .

ــ بسبب العنابية ! هاه . هاه !

ــ ولم تضحكين ؟ كانت الرجال رجالا . وكان الحب حبا .

ــ لا يغرنك « خاتم » هذا . كم من هزي مر من هنا . كلهم

تحطموا . لكن الحاج كيان لم يتحطم . لا احد استطاع ان يمس وقـــــاره .

ـــ انا « قليلة الوالي » .

ـــ « أحبابنا يا عيني رحنا وراحوا عنا » .

ـــ وهل تعتقدين أن الحاج كيان لا يزال يحب العنابية ؟

ـــ حام . حام . سراق الدجاج ، الريش فوق راسـه .

ـــ من يجهل ان الحاج كيان له معشوقة ، يبيت معها كل ليلة سـبت .

ـــ أنت وحدك يمكن ان تطلعي على بعض اسراره .

ـــ ان يبيت الحاج كيان عندي كل ليلة سبت لا يعني انه يحبني ، او أنني احبه .

ـــ حـــام . حـــام .

ـــ انا « قليلة الوالي » .

ـــ « احبابنا يا عيني . رحنا وراحوا عنا . ولا حد منـــا اتهنـــا » .

ـــ اسمعن يا بنات . قلت لكن . دعن الرجـــل جانبا ، وخضن في مواضيع اخرى .

ارتفع صوت العنابية من تحت ، فانطلق صوت ساخر من الطـــابق الثاني :

ـــ مطلقة وعينه عليها .

ـــ ارايت ان الحاج كيان ، رغم انه يبيت معي ، فان وجوده هنا مرتبط بالمعلمة .

ـــ وانت هل تحبينه ؟

ـــ من ، الحاج كيان ؟

ـــ نعـــم .

رفعت كتفيها . ووجهت السؤال الى اعماقها . ابتسمت وولت الى غرفتها ترتبها .

ـــ السلعة جاهــزة ؟

ـــ ثلاثون صنـــدوق بيرة . عشـــر قـــوارير انيـــزات . كالعادة . اطمئني .

تاملته ، وابتسمت . في الخمـسين . ربع ممتلىء . نصف شعره اشيب . عضلاته مفتولة قوية . لا يؤثر فيه شرب . يلقي نظرة على كل من يناوله قنينة او كاسا ، وينسحب دائما . لا تبرز الا يداه عند الطلب ، او قبضتاه عند الحاجة . اذا ما برز من خلف المشرب ، فلكي يحمل مراهقا متطفلا ، غرته طفولته ، او سكران عبثت الجعة براسه ، يحمله من صدره ، ويقذف به خارجا ، كفار ميـت .

قضى عشرين سنة اشغالا شاقة ، وانتهى امره الي . حمود « الجيدوكا » هبة من الله . شكرا لله على حمود « الجيدوكا » ، وعلى الحاج كيـان .

ابتسمت مرة آخرى ، وقصدت جناحها في الطابق الارضي عند المدخل الخارجي . وقفت مع المـرآة ، تفحص هيأتها غـير مرتاحة الى الترتيبات الاولية ، التي اجرتها على وجهها قبل ان تغادر غرفتها .
رغم تجاوز الاربعين ، لا تزالين لبوءة . عينـاك الكبيرتان قاتلتان . بسمتك السحرية آسرة . لولا بعض التجاعيد ، ونتوء غير متوقع للانف ، لكنت ابنة عشرين . كم افتتن رجال بعنقك الطويل ، وصدرك العريض . اضيفي بعض المساحيق الى وجهك ،

الى وجنتيك وعنقك خاصة ، وزيدي ايضا الى عينيك كحلا وازرق . لن تعدمي ، انت ايضا ، هواة ومريدين الليلة .

ليلة الاحد حبلى بالمفاجآت على كل حال ، وربنا ورحمته .

سوت وضعها كما ينبغي ، وخرجت الى البـهو ، لتتفقد الوضع ، للمرة الاخيرة ، قبل ان تسلم بدلات الاتصال للبواب . . الابواب كلها مفتوحة ، البنات يتناولن طعامهن . بعضهن بكر الى تعاطي الجمعة ، الاسطوانة في المشرب تدور بالاغنية الوهرانية : « يا امرا روحي للدار راكي مطلقة » . حمود « الجيدوكا » يمسح شفتيه . لا شك انه تناول فطوره هو الآخر .

رن جرس الباب الخارجي . قطبت العنابية حاجبيها وراحت تنتظر متخـوفة .

ـــ يا فتـاح يا رزاق .

انبعث صوت من الطابق الثاني ، فأضاف صوت من الطابق الاول :

ـــ بكر تاكل الفطاير ، صلى العشاء وجا .

فتح البواب الباب ، وتردد في فسح مجال الدخول للزبون ، الا ان صوت المعلمة نهره :

ـــ الحادية عشرة . ليدخل .

كان الداخل قرويا في الثلاثين . على راسه عمامة صفراء جديدة ، وعلى بدنه بدلة زرقاء ضيقة بعض الشيء ، وفي عنقه قميص اوسع منه كثيرا ، تسده ربطة صارخة اللون ، ينتعل

حذاء ابيض . اسمر ، قصير الانف ، ضيق العينين بعض الشيء ، حليق الذقن ، شاربه غير مقصوص ، كما يتوجب .

ـ سرق قناطير قمح من أبيه ، باعها وجاء ينفقها . أتراه في اول الطريق أم في آخرها ؟

قالت المعلمة لنفسها ، وهي تستقبله بابتسامة متصنعة ، بينما بصرها يجول ميمن هناك من البنات سيقع عليها اختيار هذا القروي .

ـ وانا الوحدانية . انا قليلة الوالي .

انبعث اللحن ، محملا بشحنات قوية من الاسى ، فطربت العنابية ، لهذا الجو الذي تستهل به سبتها .

ـ هذه البنت ، رغم أنها تكثر من تعاطي الخمر ، فانها مرحة ، لا تكل .

قالت لنفسها ، وتصنعت حديثا ، مع واحدة كانت تتناول الطعام على طاولة في البهو ، في حين كان بصرها ، يلاحق الشاب القروي .

ـ بيرة ، هات بيرة .

طلب القروي ما أن جلس . رمقه حمود « الجيدوكا » بنصف نظرة ، ثم راح يلبي طلبه في تباطؤ مفتعل . أنه لا يدري سببا معينا لهذا التصرف الذي يتعمده حين يكون مراقبا في شغله من طرف الزبون . لعله يريد ان يقول له ، أنت ونقودك ، وحياتك ، بالنسبة لي ، انا حمود الجيدوكا ، تساوي صفرا في صفر ، في طز . ان لم يرقك اسلوبي في العمل ، رميت بك كالفأر الميت خارج الباب . ولعله يتذكر عشرينته في الاشغال الشاقة ، وسط اكوام الملح في الصيف الحار ، والسلاسل في قدميه ، او وسط الاحراش

يقص الاشجار العملاقة والثلج يلبسه في الشتاء . على ايه حال . انه مقتنع بأن هذا التصرف ينسجم مع هذا المكان ويكسبه فوق ذلك ، هيبة ، هو في حاجة اليها .

ــ رحنا وراحوا عنا ، ولا حد منا اتهنا .. عيني يا عيني .

ــ « عيني يا عيني » .

انتظرت العنابية ان يشير القروي الى واحدة من اللائي كن في البهو ، او يقفن من حين لآخر في ابواب غرفهن ، او يطللن من شرفتي الطابقين ، الا أن القروي ، لم يفعل بعد .

شعرت بالضيق ، فسعلت سعلة معروفة جيدا لدى البنات ، واتجهت بنفسها نحوه .. من يدري ، لعلني .. لعله ،

ــ « وانا البرانية ، وانا قليلة الوالي » .
ــ احبابنا بالروح .
ــ مرحبا بك . انهيتم الصيف بسلام !

رفع بصره نحوها ، وراح يتأملها . لا صغيرة ولا كبيرة . لولا من معها من النساء ، لبدت اجمل واحدة في العالم . ليس عليها سوى حمالة الصدر والتبان . بيضاء مع حمرة ، لدنة ، ممتلئة .

فكرت ان تجلس الى جانبه ، دون دعوة منه ، الا انها استنكفت . البنات ينظرن وعلجية ذات اللسان الطويل ، ما تفتأ تسمعها « انا الوحدانية » . انها تمنيني ما في ذلك ريب . لقد راتني البارحة ، اسرق زبونا من الباب الخارجي واقحمه الى غرفتي . لا . ثم انه لم يجبني عن سؤالي . لعله خجل ، بل انه كذلك . القرويون لا ينطلقون مع المراة الا في الظلمة او بعد ان تصعد ابخرة البيرة الى رؤوسهم الفارغة .

نزلت « حياة النفوس » الى ابهو من الطابق الاول ، تتثنى في دلال . سرعان ما لفتت انتباه الرجل . فغر فاه ، وراح يملأ منهـــا عينيه .

ــ اريد قهوة يا حمودِ . راســي توجعني يا حمود خويا .

قالت ، وراحت تجيل بصرها في المناضد والمقاعد ، تختار ايها تتجه نحوها . سراجعت العنابية الى الوراء قليلا ، كأنما تخلي لها الجو للسطو على القروي ، اتجهت « حياة النفوس » نحــو منضدة خلــف الرجل . امتعضت العنابية لبرودتها . تبعتهــا عينا الرجـــل .

ــ اتريدين قرصا مسكنا ؟

قالت العنابية ، فردت في عنجهية :

ــ لا . اريد قهوة . اريدها ثقيلة ومرة . انا اختك يا حمود خـــويا .

اسرع حمود « الجيدوكا » ، على غير عادته ، يشعل الكانون الغازي ، ويضع فوقه « الغلاية » . حياة النفوس لي . لي انا . ساستعيد كل ما فات من اجلها . نارها تتقد في القلب قوية . اصفي حساب « خاتم » الكلب ، وانتزعها منه . ساغامر من جديد من اجل حياة النفوس ، لن يستطيع ان يصمد امامي ربع ساعة . اجرده من سلاحه حالما يستخرجه ، ثم اسحبه الى زاوية خالية وانفرد به . من اجل حياة النفوس . من اجل عينيها الناعستين . من اجل شفتيها المكتنزتين ، من اجل رشاقتها ، ولطافتها . من اجل شعرها الليلي . اذا ما قبلت حياة النفوس ان تتزوجني ، اخرجها من هنا ، الليلة بالذات .

ــ اينك يا حمود يا عزيزي ؟

ـ انا هنا ، يا حيوته . لحظة واحدة وآتيك .

غمزها الشاب القروي ، فتجاهلته . قررت ان تتجاهله . يا فتاح يا رزاق . صباح ربي . هذا العجل من اي اسطبل انطلق ؟ انهن كثيرات . اختر غيري .

قالت في سرها ، وهي تسوي القميص الاحمر النيلوني الشفاف على فخذيها العاريين ، العجل يوشك ان يلتهمني بعينيه . نظرة المعلمة لا تعجب .

اشار القروي ، بيده صراحة ، ان تجلس قربه : فتجاهلته مبادرة :

ـ راسي يا حمود خويا راسي . انا مريضة .
ـ احبابنا يا عيني بالروح جاروا علينا .
ـ لحظة . ها هي قهوة تركية ، تحيي النفوس .

جاء حمود الجيدوكا يركض بفنجان القهوة ، سبقه القروي الى منضدة الفتاة . مد يده ليحييها فطلبت منه سيجارة .

ـ هات بيرتين هات .

وضع حمود الفنجان . تأمل الفتاة بنهم . دقق النظر في القروي . ارتفع صوت العنابية مؤنبا .

ـ السيد يطلب بيرتين يا حمود الجيدوكا .

انطلق حمود نحو المشرب متثاقلا . رن جرس الباب . دخل جندي ، اشترى بدلة اتصال ، واقتحم اول باب صادفه مفتوحا . رن الجرس مرة اخرى . دخل شابان خجلان ، وراحا يتبادلان النقود والبدلات مع المعلمة ، وهما يتبسمان في سخرية من انفسهما . احتسى القروي بيرته . صبت له حياة النفوس ما في قارورتها فلم يمانع . دفع الحساب وطلب المزيد .

ـــ لا تعطني بيرة يا حمود . هات مشروبا آخر .

ـــ آه ، بدا السبت يرسل انفاسه الكريمة . اللهم نجنا من « خاتم » .

قالت المعلمة لنفسها ، واعتدلت في مقعدها ، تدخن سيجارتها بالتذاذ . انبعث صوت علجية من فوق :

ـــ وانا وانا الوحدانية . انا قليلة الوالي .
احتسى حمود كأس نبيذ احمر ، وتمتم :
ـــ اذا ما جاء اليوم صفيت حسابه . يا هو يا انا ؟
وتساءلت حياة النفوس وهي ترشف من كأسها :

ـــ ماذا تنتظر ؟

ـــ اريد ان تتزوجي مني . عندي نقود كثيرة . خلف لي ابي تركة هائلة ، اريد ان اتزوجك . فاجأها القروي ، فلم تتمالك من الضحك . رن الجرس مرة اخرى . انبعث الصوت :

ـــ احبابنا يا عيني . رحنا وراحوا عنا .

التحديق في المرآة

اطال الحاج كيان التحديق في المرآة المنتصـــبة امامه حتى بدات تختفي شيئا فشيئا . الدخان يتصاعد من الغليون ، وذرات حلوى الترك تتحلل في فمه ، مع العسل والحشيش . اطراف المرآة تختفي . تنمحي . وسطها يتحول الى بؤرة . البؤرة تضيق وتضيق . ثم تتسع وتتسع .

الساعة الثالثة صباحا . الشاب يستيقظ من نومه ملتاعا . يضع جبته الزرقاء البالية على كتفيه ، طربوشه الاحمر المتسخ على راسه . يحمل اضبارته ويغادر المأوى الخيري ، منطلقا في الانهج الضيقة ، نحو جامع الزيتونة . الحارس يفتح البوابات الخشبية العتيقة لكي يمر . لقد اعتاده ، وتعود مروره كل صباح من هنا في مثل هذه الساعة . مر بالاسواق المختلفة ، انفتحت في وجهه جميع البوابات ، ووجد نفسه اخيرا في رحاب جامع الزيتونة الاعظم ، توضا . صلى الفجر ، اخرج من الاضبارة ديوان المتنبي ، وراح يتلوه من اوله ، كما لو انه كتاب مقدس . كان يستظهر القصائد والابيات عن ظهر قلب ، ولا يتوقف الا من حين لآخر ، وبمجرد ان يلمح مطلع البيت ، ينطلق في الاستظهار . توقف عند مرثية اخت سيف الدولة ، واعاد قراءتها عدة مرات . انه يحبها .

يحبهما معا . القصيدة ، واخت سيف الدولة . اخت خير اخ ، وابنة خير اب . هذه التي تزوره كل ليلة قبل ان يستسلم للنوم . نطبع على جبينه قبلات ، ثم تتمدد الى جانبه على سريره الحجري ، نهمس في اذنه كثيرا ، ثم تعانقه وتستسلم له ، ليستسلم بعد ذلك الى النوم ، الساعة الثالثة الا ربعا .

اذن لصلاة الصبح . اقيمت الصلاة . بعدها امسك شيخ التجويد بيده وقاده الى سارية بزاوية مظلمة ، وراح يعلمه القراءات السبع . يرتل آية على قراءة ، ويطلب منه ان يقلده . في حين ظل يحتفظ بيده ، ويدلكها من حين لآخر .

كان اول من يحضر درس التجويد من طريقته بالسنة الثالثة، وكان الشيخ متعلقا به اقصى التعلق ، ويؤكد له كل صباح ، انه سيكون اعظم مجود على الاطلاق . حاول مرة ان ينزع يده من كف الشيخ ، فنهره قائلا :

— لا تقطع الصلة الروحية بيننا .

منذ ذلك اليوم ، تعود ان يترك يده ، غير مبال بأصابع الشيخ التي تواصل حركة مريبة . . .

في الليل ، على الساعة الرابعة والخامسة صباحا وفي البرد القارس ، وبعد صلاة الفجر والصبح والآيات البينات تتلى منغمة ، لا يرفض الانسان اي مصدر للحنان والدفء . لا بد ان الشيخ ايضا ، يعاني الشعور بالغربة والتفرد .

حلت الثامنة . جاء شيخ البلاغة . كان منذ اسبوعين يصول ويجول ، في درس الكناية ، ولا هم له سوى شرح شاهد « بعيدة مهوى القرط . »

اسمعوا يا ابنائي . تقولون عنقها طويل . اقول لكم ناقة او زرافة . تقولون بين وجهها وصدرها مسافة . اقول لكم هذا كلام عمال الطرقات والجسور .

ماذا يبقى اذن ؟ يبقى ان نلبسها قرطـا . ان نضع قرطا في اذنيها ، ثم نرى ما اذا كان هذا القرط ينزل على كتفيها ام لا ؟ قد لا ينزل ولكنه يكون قريبا منهما ، فاذا لم ينزل وظل بعيدا ، ماذا نقول في هذه الغـادة ؟

— نقـول طويلة العنـق .
— لا يا حمار . ليست زرافة . ماذا نقول اذن ؟
— بعيدة مهوى القرط يا سيدي ؟ .
— احسنت . احسنت . هذه هي البلاغة . وهذا هـو الجمـال .

ويغرق في وصف الجمال ، ويحضر امرأ القيس ، وعمر ابن ابي ربيعة ، وتحضر اوصاف الجياد والنوق والمحبوبات حتى تأتي التاسعة ، يحضر ، استاذ التوحيد ابو الحسن علي الاشعري كما سمي في السنة الفارطة ، وحسن الشيخ ، كما يسمى هـذه السـنة .

انقضت السنة الدراسية الفارطة ، في ابـراز مآثر ابي الحسن علي الاشعري ، واياديه البيضاء على الاسلام ، وفي ذم خصومه الكفرة الملحدين المعتزلة اصحاب الافكار المستوردة في الاسـلام .

تأملوا عمق ما اهتدى اليه الاشعري . كل ما يخطر ببالك فالله ليس كذلك . جبل لا . نور لا . سحاب لا .

ـــ من خطر بباله شيء يبده .

ـــ ... سيدي الشيخ .

ـــ لا يا حصـــان .

ـــ ... يا سيدي .

ـــ قلـــت لا .

ـــ ...

ـــ لا يا رابس البطيخ .

ـــ عرفته سيدي الشيخ عرفته .

ـــ ما هو . كيف تتمكن من معرفته وابو الحسن الاشعري يعلن استحالة ذلك ؟ .

ـــ لا شيء . لا شيء أطلاقا . حاشـاه جل وعلا ان يكون شيئا . يكون عندما ينتفي كل تصور له .

ـــ احسنت . احسنت . ايها النجيب . كل ما يخطر ببالك فهو ليس كذلك . لقد اضفت جديدا ايها الجزائري النجيب . يكون عندما ينتفي كل تصور له . وانا الخص كلامك هذا هكذا : لا يكون ويكون . الايمان به ، كما ليس هو ، وليس كما هو .

ـــ انه غير موجود أطلاقا حينئذ .

ـــ من هذا المعتزلي الكلب . من هذا الكافر الجاحد . من هذا الباطني اللعين . ادع لي القيم العام ايها الجزائري . سـاطرده من جامع الزيتونة الاعظم وفروعه . كل فروعه . أقسم بالله الناطق الفاتق . انه مطرود ، مطـــرود . مطرود نهـائيا .

جاء القيم العام ، فتح تحقيقا مدققا للوصـــول الى معرفة

صاحب البدعة ، الا انه لم ينته الى اية نتيجة .

ــ لعلك انت ايها الجزائري اللعين ؟

تساءل الشيخ ، فانفجر كل الطلبة بالضحك . ضحك الشيخ والقيم العام بدورهما ، واغلق ملف الاشعري . تغيب الاستاذ كامل الاسبوع المتبقي . وعند استئناف السنة الجديدة جاء دور حسن الشيخ .

ــ اسمعوا ايها الملاحدة . هناك اربع شخصيات في التاريخ الاسلامي ذات وزن عظيم . محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الذى جاء بالاسلام . صلوات الله عليه . وابو الحسن علي الاشعري . الذي افتك علم الكلام من اعداء الاسلام واستعمله لنصرة الاسلام ، وابو حامد الغزالي انكم لا تعرفون بعد الغزالي . لكن احفظوا هنا الاسم ، ودعوه في هذا الزعيم المصري الذي ظهر اخيرا ، يدعو الى الجهاد في سبيل الله .

حسن الشيخ ايها الملاحدة ، اسس حزبا . اساسه الكتاب والسنة والجهاد في سبيل الله . حسن الشيخ ، ليس عالما دينيا غارقا في النظريات والتفاسير ، وانما هو قائد ، ومعلم ومجاهد . تصوروا انه يبث دعوته في كل مكان ، في الشوارع . والمقاهي ، في الساحات العامة ، في القاعات السينمائية . في المسارح ، في كل مكان يمكن ان يتجمهر فيه الناس . حسن الشيخ . يقتحم حتى .. آه حتى . تصوروا اين يقتحم حسن الشيخ .

ــ ثكنات الجند ؟

ـــ هذا طبيعي يا بليــد ؛

ـــ ساعات المــلاكمة ؟.

ـــ وهذا ايضا طبيعي يا غبي .

ـــ الدور والقصور ؟

ـــ وما وجه الغرابة في ذلك ؟

ـــ دور البغاء يا سيدي .

ـــ من هذا ؟ الجزائري ؟ احسنت ايها النجيب . احسنت . حسن الشيخ يقتحم دور البغاء . ويبث الدعوة هنالك .

ـــ هل العاهرات كافرات يا سيدي ؟

ـــ من طرح هذا السؤال ؟

ـــ انا يا سيدي .

ـــ آه . انت ايها الجزائري مرة اخرى . احسنت بهــذا السؤال . ان حسن الشيخ . لا يبشر بالاسلام او يدعو للدخول اليه انما . يستنهض المسلمين . فكما يدخل المقاهي والملاعب والمسارح . ويقيم التجمعات في الساحات العامة ، يقصد ايضــا الغاويات الضــالات .

ـــ وهل يشترط في البغي، لكي تدخل حزب الشيخ حسن ، ان تغادر الماخور يا سيدي ؟

ـــ من هذا البليد الذي طرح هذا السؤال ؟ من ؟ من ؟ اعلم ايها البليد ، ان حزب حسن الشيخ قائم على الطهارة والصــفاء والايمان . والضالة التي لم تتغلب على ضعفها ، كيــف يمكنها ان تقدم على الكفاح لاقامة حكم الله .

استهونه الفكرة . اعلن في قرارة نفسه انه من حزب حسن الشيخ . بدأ بالدعوة في المأوى الخيري . فطن اليه طالب رسب في امتحان الاهلية خمس مرات ، فدعــــاه الى غرفته . اغلق الباب . دنا منه جيدا وراح يهمس :

ـ أذا كنت تؤمن حقا بما كنت تصرح به . انضم الينا . اننا نشكل مرتة اخوانية كبيرة . ان عملنا سري ، وينبغي ان تعلم هذا ، هل علمت شيئا عن الباطنية والشيعة والخوارج واسلوب التقية ، أننا هنا ، لاننا تحت حكم الكفار ، نتبع التقية .

ـ ولــم ذلــك ؟
ـ لقد القي القبض على بعض الاخوان في مصر .
ـ اعتبروني منكم . ساكرس حياتي للجهاد في سبيل الله .
ـ تعال الى غرفتي في الليل ، كي اعطيك بعض الكتــب والوثائق .
ـ شكرا لك . هل صحيح ان حسن الشيخ ؟
ـ قل الامــام حسن .
ـ الامام الشيخ حسن .
ـ الامام تكفي . ما بــه ؟
ـ هل صحيح انه يدعو حتى في المواخير .
ـ لقد هدى الله على يده أكثر من بغي .
ـ ومن يدعو هنا في المواخير ؟
ـ لم نصل الى تلك المرحلة بعد .
ـ سافعل ذلــك .
ـ مــاذا تقول ؟
ـ منذ الليــلة .

ـ يـا حمـــود .

هتفت العنابية ، وقد فهمت الوضع . فولى الى مشربه وهو يتفحص قبضتيه . لن يفلت مني على كل حال . ستصعد البيرة اكثر ، واذ ذاك ، تكون المعلمة بالذات هي التي تطلب مني ان اقذف به خارجـــا .

دققت العنابية النظر في القـــروي ، وفي حياة النفوس ، وابتسمت . اذا ما عرفت الفتاة كيف تلعب لعبها ، اضفناه الى القائمة . عشرون مثله يكفونني . هذا الشاب يبدو انه غني . على كل حال يجب ان نعرف هويته ومكانته . لو ان علجية هي التي تولت امره ، لمخضته بسرعة . الفتاة حياة النفوس بلهاء . دمها آنكليزي ، لا يهمها سوى الوقوف عند المرآة ، وتأمل جمالها . خيرها وشرها متساويان . تجلب زبائن كثيرين ومحترمين ايضا ، وتجلب كذلك كل من دب وهب من « الهزية » . حمود الجيدوكا ، عينه عليها ، عشقها من يوم دخلت . لكن ها هو امره يتفاقم يوما اثر يوم . حمود كبير ، البنت صغيرة . حمود الجيدوكا ، فاته الركب ، ولن يثبت في الميدان يومين . انهزم قبله ، ومن اجل هذه البنت بالذات ، اربعة هزية . « اكحل الراس » وما ادراك ، انهزم . بوهراوة وما ادراك اختفى امام « حميد الترسيتي » ، حميد الترسيتي وشطارته ، اكلها امام « باباي البوكسور » وتنازل له عنها ، ودخل في خدمته ، حتى جاءهما هذا اللعين « خاتم » .

أيفكر حمود الجيدوكا في مقارعة خاتم ؟ قد يقهره في الجولة الاولى ، نفترض ذلك ، لكن هل يقوى على الثبات امامه ؟ ان حمود الجيدوكا مريض ولا شك .

ـ احبابنا يا عيني ، بالروح جاروا علينا .

ـ وانا وانا قليلة الوالي .

تجاوب الصوتان ثم انقطعا ليفسحا المجال للحن ينبعث من اسطوانة وضعها حمود لتوه «نوره يا نوره ياوردة ناديه في بلوره» .

ـ يحييك خويا حمود .

قالت حياة النفوس ، هاربة من الصمت الذي ران بينها وبين القروي ، وهتفت علجية من غرمتها .

ـ البار عمر يا حمود . البار عمر ، دعنا من هذا البكاء .
ـ فريد يحيي النفوس يا علجية بنت امه .

صعد تعليق من الطابق الاول . رن الجرس . دخل خاتم ، محاطا بمساعديه ، ومتبوعا بالمغني والقصابين .

وقفت المعلمة ، وارتسم على محياها سؤال كبير . ماذا يريد ! اليوم سبتي . انا مدانة ، وعلي ان اجمع المبلغ في اقرب وقت .

وقفت حياة النفوس ، وراحت تستقبله . قدمت خدها ليقبلها ، فاحتضنها وحملها بين ذراعيه ، وهتف :

ـ ما هذا الوجوم المخيم على الدار . اليوم سبت على ما اعرف .

اتجه الى المشرب ، وهتف :

ـ هات ستة هات .
ـ المعلمة تريد السبت والاحد بدون مشاكل . انت تعرف انهـا مدانـة .
ـ قلت هات ستة . واعط لحياة النفوس ما تريد . دعيك من المعلمة . من يخلق المشاكل وانا هنا .

فتح حمود الجيدوكا قوارير البيرة الست ، بعد ان صفها

الاولى (بل على الخرب قبل ان تصير مساجد) . لن تكون هناك اية بطولة . سيكون الحسم وهذا كل ما في الامر . البنت حياة النفوس . لي . لي انا ، وسأحررها ، لاول فرصة تتاح . دعه يشـــرب اكثر .

— قلت ســـتة .. هات .

افتقد خاتم عشيقته حياة النفوس ، في غمرة هتافات الظما المنطلقة . لم يجدها . تخلص من مساعديه وبعض النساء اللائي كن قربه ، واسرع الى الطابق الاول . اقتحم غرفة حياة النفوس . وجدها مستلقية على الفراش ، منفردة . ابتسمت له . ابتسم . كانت اثار الاتصال لا تزال واضحة . انحنى وقبلها . قبلته من اعماقها . امسكها من عنقها وحملها اليه . صفعها بعنف ، وبادرت يداه الى الضغط . راح يخنقها . حدق فيها . الحمرة تكسو وجهها . عيناها الدامعتان تبرزان اكثر . اللعاب يسيل من فمها . اطلقها . احتضنها . ضمها الى صدره راح يبكي . كانت تقبله وتمســـح عليه .

حملها بين ذراعيه ، نزل بها الدرج خطوة فخطوة ، اتجه الجميع اليه ، وواصلوا هتافاتهم : « "ارواح ارواح وكي نشوفك نرتـــاح » .

— هات ستة هـــات .

هتف من بعيد . رن جرس الباب ، دخلت جماعة من الشباب ، اهتزت العنابية فرحا عنـــدما استطاعت ان تغـــري احدهم ، فتختطفه وتقحمه الى جناحها . بدا عدد النســاء يقل من البهو . كن يتسللن الواحدة اثر الاخرى الى غرفهن خلف الزبائن .

وقف احدهم يطلب حياة النفوس . اشارت الى من حولها ، مؤكدة انها منشغلة ، الا ان الشاب وقف محرا ، وهو يستظهر بدلة اتصــــاله .

ــ انا هنا من اجلك . لقد دفعت الثمن .

التفتت الى خاتم ، وراحت تستفسره بعينيها . .

هناك مثل هذه المؤسسـات . تخرج الواحدة من بيت ابيهـا او اخيها ، او تغادر زوجها واطفالها ، وتأتي الى هنا لتبيع بالنقود ، ولكل صاحب نقود ، ما اباحه الله ، بشروط معينة .

انها بضاعة — في كلتا الحالتين — في حالة امتلاكها وخزنها . احتكارا للنفس ؛ او في انتظار الزبون اللائق صاحب العرض الاوفر. وفي حالة جمعها في محال عمومية ، تقع وسط السكان ، وقرب المساجد وبيوت الله . وعرضها على كل من يشاء .

هناك تباع بالجملة . وهنا تباع بالتقسيط .

وهي دائما ككلبة السيرك ، تؤدي الادوار التي تدرب عليها . وبصرها عالق بالايدي المعلنة لقطعة السكر . يقينا ان انينها خال من النزعة الانسانية . انين لا يحمل شحن التطلع ، او اللوم ، او حتى الرجاء . أنين توجع لا غير . انها مجردة من الانسانية ، وعلى استعداد تام لان تصير سمكة او كلبـة ، او بغلة او اي حيوان آخر . لا تعرف من الحياة ، الا ما يمر على حاسة ذوقها .

المسكينة ، معروضة هناك كبركة ماء دافيء ، يغطس فيها كل قادم . كل مستقبلها في شبابها . ما ان يذوي ، حتى يقذف بها في الشارع ، لتترك مكانها لمن هي ادنا . لا تطمع في بنت او ولد او امومة او حنـان .

سأطلع على كتاب الطاهر الحداد « امراتنا في الشـريعة واا » ، رغم ان مشـائخ الزيتونة يحرمونه ، ويكفرون ، كيف يتصور وضع هذه المغبونة ؟

الجنة غامض جدا ، بل ، انه اشبه ما يكون اعة تباع بالجملة وبالتقسيط ، وهنالك

بضاعة تعطى بالجملة وبالتقسيط .

انه يبشر المؤمنين بالحور العين والكواعب الاتراب ، ولا يبشر المؤمنات الا بقطع السكر . كل ما يتعلق بهن ، ياتي دائما مرتبطا بالرجل . وقد يكون بضاعة بائرة ، لان بعض المؤمنين يشتغلون بالولدان المخلدين .

ايها الخوني . ايها الزيتوني ، لقد بدات تنحرف عن الطريق ، قبل ان تشرع في سلوكه . انك تجندت للدعوة الى اقامة دولة الكتاب والسنة ، وليس الى تقويض اركان الدين ، او الى مناقشة اصوله . انتظر حتى تتعمق في اصول الدعوة ، ثم ناقش ، او اعط رايك .

- لا تكن معتزليا قبل ان تكون مسلما .

انت على وشك الوصول الى مقصدك . فاستعد . اليوم الخميس ، وستصادف كثيرا من الزيتونيين هناك ، ينفقون المبالغ الزهيدة التي ترسل اليهم ، ويعوضون على ذلك بالصوم اسبوعين على الاقل .

الصابرون المتعففون ، يجازون في الجنة بالبضاعة المجانية . توهب لهم قطعان وقطعان من الحور العين والكواعب والاتراب والولدان المخلدين .

هيا يا حسن الشيخ ، انت امام باب ماخور ، ارفع يدك ودق الجرس ، ادخل مرفوع الراس ، شامخ الانف ، كمن يدخل محل بيع الجلود النتنة . انك ثري ، يخرج من منزله يوم الجمعة قصعة الطعام للفقراء ، ويتظاهر بخدمتهم بنفسه .

من جبته القصيرة ، واعرض منها . قدماه الكبيرتان يضيق بهما الحذاء المتسـخ .

بهت الجميع . تأخر الزيتونيون جانبا . لقد فهمه بعضهم ، وخجل بعضهم من انتسابه للمؤسسة التي ينتمي اليها هذا المشوه . انفتحت الابواب . خرجت النساء شبه العاريات ، ورحن يتسابقن الى البهو . وقف كثير من الرجال غير المسرولين في ابواب الغرف ، يعتريهم الخوف والاضطراب . تفكك الطابور عندما برزت صاحبة الباب الذي يقفون عنده ، ونزلت بدورها الى البهو .

— يا اماء الله . ايتها البئيسات . لا اتحدث اليكن بالصفة التي ينعتكن بها المجتمع ، عاهرات ، او مومسات ، ولا بالصفة التي تشعرن بها في قرارة انفسكن ، حقيرات . انا صوت الله . صوت الاسلام ، صوت الامام حسن . اتحدث اليكن ، اولا وقبل كل شيء . كمسلمات .

— ولكن معنا يهوديات .
— ومسيحيات ايضا .
— ها ها ها .
— لو تحدث الى مشائخه وزملائه الذين لا يفتأون يترددون هنا لكان افضـل .

— البارحة كان الدرس حول حزب الاخوان . ابو الحسن على الاشعري ، السنة الماضية ، وحسن ، هذه السنة ، سيكون مسروراً ، عندما يبلغه خبر الجزائري .

— ترى كيف يمكن ان نبلغه الخبر ؟

— ويا ايتها المسلمات الضالات . اذا لم يكن صوت الاسلام يبلغكن هنا قبل اليوم ، فذلك لانحلال المجتمع الاسلامي ، وللنكسة

التي اصابته ، لقد تآمر عليه اعداؤه وابناؤه معا . واليوم ، ونحن على ابواب استعادة مجد ، خالد ، والزبير ، وعقبة ، وطارق ، وصلاح الدين .

ـ وما تنفع الصلاة ونحن هكذا ؟
ـ اننا هنا نصوم افضل مما تصوم حرائركم .
ـ نعم نحن مسلمات . ولكن كل الذين يأتوننا ايضا مسلمون .

ـ ايها المجنون ، هل جئت تخرب عشي . من قال لك اننا غير مسلمات هنا .

ـ ان النهضة الاسلامية ، يجب ان تكون من صنع جميع المسلمين والمسلمات . لماذا لا تكن انتن الطليعة ؟

ـ وكيف ذلك ؟
ـ ناد زمردة يكسر له فمه .
ـ لا . هاتوه لي . هاتوه . انا اعرف ما افعل به .

قالت العنابية ، وتقدمت منه ، تفتح ذراعيها وتطلبه . لم يرها . كان يرى ملايين الملايين من الاجساد العارية والاثداء المتدلية والفروج المكشوفة . كان يحاول ان يستر هذه الاجساد . ان يعيد الى الاثداء والفروج حرمتها .

ـ ايتها المراة لقد خلقت لتكثري امة محمد . لتعمري الكون بالمسلمين ، فيتباهى بنا المختار يوم الدين .

ـ هيا اعينوني عليه .

امسكته من رجليه . حاول ان يتخلص . سقط الى الخلف . امسكته واحدة . تناولت ذراعه الايمن ، تناولت اخرى ذراعه

الايسر . احتضنته احداهن من وسطه . تقدمت اخــرى تتناول احدى ركبتيــه .

كان لا يزال يخطـــب .

ـــ لقد وعد الله الشهداء بالجنة . لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله اموانا بل أحياء عند ربهم يرزقون .

ـــ الى غرفتي . الى غرفتي . ساريه جنته . الى غرفتي . سيعرف رحمة ربه .

امرت العنابية ، ووجد نفسه يستسلم . « ما قتلوه ومـــا صلبوه ولكن شبه لهم . » . « يا نار كوني بـــردا وســـلاما على ابراهيم » . « باسم الله مجراها ومرساها » . يا قطام الا تجدين مهرا سوى دم علي ابن ابي طالب . يا ابن الملجم ، قطام مجنونة . ايها الموت . الم تعشق زوج فاطمة الا مهرا لقطام . ايها التاريخ . الست سوى ما يكتبه الاعداء المنتصرون ، عن الخصوم المنهزمين . احقا لم يهن دم زوج بنت الرسول ، وابن اخيه ، وصاحب نهج البلاغة ، الا مهرا لقطام . احقا ، لم يقو على علي ابن ابي طالب ، بطل من الترك او الفرس او الروم او غيرهم ، سوى ابن الملجم ، العـــاشق الساذج ؟

ـــ ادخلوه هنا . سيرى معنى فعلته . قولوا للزبائن ، العنابية مشغولة بمريض .

حنين النار وحنين الريح

ـــ اما ويشعشع نوره .

خرجت العنابية من جناحها تغني . بصق الشاب الذي كان معها خلفه ، ثم غادر المكان .

كان الغناء قد توقف ، كذلك العزف والرقص . تفرق معظم النساء . حتى علجية اختفت . بقي خاتم ، ومساعداه ، والمغني ، والقصابان ، وحمود هناك خلف المشرب يبيت امرا ، وحياة النفوس والشاب صاحب بدلة الاتصال .

راح خاتم يتعرف عليه . اطول مني بقليل . اسمر ، مفتول العضلات ، اشعر الصدر والذراعين ، في الثانية والعشرين أو يزيد . هادىء متزن ، لا يظهر عليه اطلاقا ، اي اثر للغرور ، او لاحتقار غيره .

يريدها وهذا كل ما في الامر .

جاء بنقوده ، ليشتريها لوقت معدود . وهي هنا معروضة

للبيع ، له ، او لغيره ؛ او لي ، لكل من يملك نقودا ؛ انا هزيها بأي شيء اذن ؟ بالاتصال المجاني معها ام بضربها كل يوم تقريبا ؟ ام بالاستيلاء على نقودها ؟

انا فتاها في اوقات فراغها . هي اذ ذاكَ لي ، ولي وحدي . هي وما تملك . وكل من تسول له نفسه لحظتها ان ينتزعها مني ، اشرب من دمه . ليس من حق الهزي ، ان يعرض نفسه لاهانات مثل هذا البليد . انه يعلم انها منشغلة معي ، ومع ذلك يطلبها ، انه غبي على كل حال .

غبي ، ومع ذلك ، اشترى بدلة اتصال من اجلها ، وسيرافقها الى غرفتها ، يغلق دونها الباب ، تنبطح له كالذبيحة ، ويلوثها . لعلها تتعلق به . لعله يترك في قلبها اثرا .

غلى الدم في عروقه . تصاعدت البيرة الى راسه ، قرر ان ينتقم لشرفه . التفت الى حياة النفوس ، وفاجأها ، بصفعة لاذعة . ارتمت عليه تقبل يده ، وتضمها الى صدره ، في حين ، وثب مساعداه وامسكاه من مرفقيه .

— ماذا فعلت المسكينة ؟

— أنا هزيها . أنا عشيق حياة النفوس . ليعلم الجميع انني عشيق حياة النفوس .

— هو ذا اذن ، عشيقها !!

قال القروي ، وهو يحتسي كأسه ، واضاف ، « هذا الفتى الفظ هزيها . تكفيه ضربة واحدة بالعصا حتى يهرب كالكلب » .

ــ ستكون عما قريب زوجتي .

قال حمود الجيـــــدوكا لنفسه ، وهتف الشاب الاسمر :

ــ سأعود في فرصة أخرى . انا جئت من اجلك . سأعود بعـــد حسين .

جاءت العنابية مسرعة ، تنظر حولها ، هل هناك من يمكن ان تستنجد به ، في حالة ما اذا تطورت المسألة .

ــ هذا ماخور وليس غير . البنات هنا ، يشتغلن ، نحن جميعا هنا نشتغل ، لنتغلب على هم الزمن . كان الهزي ، يوم كانت الدنيا دنيا ، وكان الرجال رجالا ، يخجل من الظهور امام الزبائن . صار هزي اليوم يتظاهر بتعلقه بمعشوقته . اصعدي الى غرفتك ايتها العاهرة ، واصلحي من حالك .

ــ عفوك خالتي العنابية ، سنخرجه من هنا .

ــ يخل دار امك . لقد اتفقنا على ان السـبت سبت والاحد احـــد .

ــ العنابية انتبهي الى ما تقولين . انا خـــاتم . قهرت عشرين هزيا ، قبل ان آتي الى هنا .

تسللت حياة النفوس . لحقها الشـــاب الاسمر . دق الجرس . ابتسمت العنابية . ارتفعت القصبة ، تشكو الظما الى السماء . اشار القروي بيده الى العنـــابية ، فاسرعت نحـــوه .

ــ هات ســتة هـــات .
ــ حلوة النفوس هذه كم اجرة يومها ؟
ــ ها ها . حلوة النفوس . حلوة الحلقوم . تعبير لطيف جدا . ستسر له حياة .

رفعت صوتها ، تكشر عن اسنان الذهب ، ورفعت كأس الفتى فأفرغتها في جوفها . همست :

— لم هذا السؤال ؟

— اريدها يوما او يومين .

— ان لم يرقك جناحي هنا ، اعطك مفتاح فيلتي في الضاحية . كم يوما تفكر ان تبقى ضيفا علينا ؟

— هذا يتوقف على كرم المضيف .

— ثلاثين الفا لليلة .

— هي ذي مائتان عربونا . الحساب يوم تعود .

— لا . لا تستظهر النقود امام هؤلاء الاشقياء . تعال معي الى جناحي .

لمح خاتم النقود وهي تخرج وتعود بسرعة الى جيب صاحبها . قدر ان هناك بيعا وشراء ، وانه لا بد ان يكونا متعلقين بحياة النفوس . المبلغ الذي حصل عليه من بيع مجوهرات امه ، يكاد ينتهي ، وسيكون بعد يوم ، او يومين في حاجة الى نقود . سيطلب حقه ، وسيناله ، او يقيم الدنيا ويقعدها على رأس العنابية .

— هات ستة هات . هاتها على حساب المعلمة .

قال عندما رآها تخرج فرحة ، تضحك من كل جوارحها ، في حين خرج القروي مسرورا بدوره . نظر اليها حمود الجيدوكا ، فأومأت برأسها ، أن اعطه ، واضافت :

— وهات لي انيزات .

كان جرس الباب ما يفتأ يدق . وكانت الابواب ما تفتأ تنغلق وتنفتح ، وكان الطابور بدأ يتشكل خلف باب حياة النفوس ، وكانت القصبة تحاول أن تبني جسرا ثابتا بين قلب

صاحبها ، وبين اخر نقطه ، في احر بعد ..

وقفت العنابية على المشرب . قدمت سيكارتها الى حمود الجيدوكا فأشعلها هذا بسرعة . التفت خاتم اليها ، بانت له من خلال عينيه المضببتين ، اصغر بكثير مما هي عليه . انحنى قليلا ، حملها بين ذراعيه وراح يطوف بها البهو .

تبدلت نغمة القصبة . ارتفعت نقرات البندير (١) ، صرخ المغني : « هاتوا لي عودي (٢) ولجامه » . اهتزت الارض تحت قدم خاتم . طغت النشوة على العنابية . نسيت عمرها . مكانها . جوها . تحولت كل ذرة فيها الى نشوة ودلال .

ــ دعني يا خاتم دعني .

طغى الضباب على عينيه ، بانت له اصغر بكثير ، فار دمه اكثر . خفت في ذراعيه . جال بها عدة جولات . اطلت النساء من الطابقين ، ثم ولين . جرى بها الى جناحها . رماها على السرير. احتضنته بعنف وقوة . فار شبابه . فاضت امومتها . انطبقت الارض والسماء على بعضهما . امتزجا ببعضهما .

همدت انات القصبة ، ودقات البندير ، استلقت الى جانبه، عرى صدرها ، وراح يمتص ثديها ويبكي . ضمت راسها الى صدره ، وانهمكت بدورها في بكاء مر . لو أنني سحابة اطوف بالدنيا كلها ، ثم اختار حقل برتقال عطشان فأدفق عليه ، خيوط ماء زلال . اسري في العروق ، ثم اصعد مع الاغصان ، فاتفتح زهرات بيضاء ، ثم انطلق عبيرا ، نحو جميع العاشقين ،

---

(١) ـ في اللهجة الجزائرية الدف وليس الطبل الضخم .

(٢) ـ فرسي .

والعاشقات ، اقتحم كيانهم ، فانزل اطفالا ، بنين وبنات .

اعيديني الى صدرك يا أمي . اعيديني الى رحمك . احتفظي بي هنالك ، فلا اتعرض لبؤس او الم . هذا العالم الذي انا فيه لا يلائمني . انه مليء بالتعاسة والشقاء . السيارات والقصور والفتيات ، للاغنياء ، وانا ليس لي سوى دم فائر . حياة النفوس، ينتزعها مني ، كل من يقوى على شراء بدلة اتصال . لو كنت سلا ، لسكنت صدرها ، ولاذويتها ، أذويها بسرعة ، حتى تدفن وادفن معها ، ويدفن كل قهر معنا . حياة النفوس ، نلعق يدي ، كلما صفعتها ، انها تحبني ، بل ، إنها لا تقوى على حبي . انها ذليلة ، وانا ذليل ، وكل ما في هذا العالم ذليل . اعيديني الى رحمك .

ارتفعت نداءات القصبة ، تستنزل الرغائب من السماء . رن الجرس . استفاقت العنابية . ابتسمت ، لمشهد خاتم يمتص ثديها . تناولت راسه بين يديها . بان لها في الثانية او الثالثة . قبلت جبينه ، مسحت على راسه .

— من اين تنفق ؟ اعلم انك لا تشتغل .
— بعت بضاعة .
— ما هي ؟ هل سرقت .
— رهنت مجوهرات امي .
— تقول ؟ هل سرقتها منها ؟
— كلا . اعطتنيها حتى لا اقتل نفسي .
— بكم رهنتها ؟
— بمائة وثمانين .
— اعطني وصل الرهن ولا يهمك .

ـــ ماذا تقولين ؟

ـــ هل لك اخوة ؟

ـــ انا فقط . اخي الكبير مات في الحرب .

ـــ ابوك ؟

ـــ ابي مع زوجته . هجر أمي منذ سنتين .

ـــ هات الوصل .

ـــ العنابيـــة .

ارتفع صوت من الخارج . وثبت . وثب خاتم خارج الجناح ، واتجه نحو المشرب . عاد الفتى القروي فرحا . سأل العنابية :

ـــ أهي مستعدة . التاكسي تنتظر .

ـــ حالا . حالا . انتظر قليلا .

صعدت الى الطابق العلوي . القت نظرة على الطـــابور الذي يقف خلف باب غرفة حياة النفس ، قالت بصوت منكسر :

ـــ ابحثوا عن اخريات او استعيدوا نقودكم . البنت ستخرج .

ثم دقت الباب دقتين ، وهتفت :

ـــ التحفي . والتحقي بي في جناحي يا حياة النفوس .

ولت راكضة ، نحو المشرب ، تحاول ان تصرف خاتم خارجا ، قبل ان تنزل البنت ، ربما لن يدعها تذهب ، ربما يرتكب حماقة ، الولد اهوج بحق .

حافات الأجرف

سقط طربوشه في الطريق ، فلم يأبه احد ، تمزقت جبته المتهرئة من كل جهة . كان مستسلما استسلاما تاما .

ــ هاتوا أسيري . ادخلوه .

قالت الفتاة ، وهي تنهج . وتضحك في نفس الوقت ، ثم اضافت :

ــ على السرير ، على السرير .

قذف به فوق السرير . لم يكن يبدي اية مقاومة . المقاومة لماذا . وضد ماذا ؟ لقد وقع في اسر العابثات ، وهذا امتحان كبير . كان من الممكن ان تتخذ المسألة مجرى آخر . يحملن العصي والبشامق ، وكل ادوات الضرب ، وينهلن عليه . يدمغنه ، يكسرن انفه . يكسرن اسنانه ايضا . يعدن معركة احد ، فلا يقوى حتى على الانسحاب . يحملنه من رجليه ويقذفن به خلف الباب الخارجي . بل ، تغري به المعلمة ، اثنين او ثلاثة من الاشقياء ، يشوهون خلقته . ويتركونه . اهون ما كان ممكنا ان يتطور اليه الامر ، ان تتلفن الى الشرطة فيلقى عليه القبض ويساق الى السجن .

لو ان الامام تعرض لمثل هذه التجربة ، ماذا سيكون رد فعله ؟ كيف سيقاوم ؟ اتكفي تلاوة الآيات هنا . اقرأ آية الكرسي . اقرأ المعوذتين . اغمض عينيك . لا تفتحهما . هذا العطر الذي تنبثق رائحته مسكر . قاتل .

ــ هيا اخرجن . ساستنطق الاسير .

اغلقت الباب ، وعادت اليه . كان مستلقيا مغمض العينين، خائر القوى مهزوما ، يغطي نصفه ازار وردي ، وتملأ صدره رائحة عطر شذية .

ــ ايها الجزائري الاهوج . انا ايضا جزائرية . انا عنابية. من اية منطقة انت ؟

ظل صامتا . هل تعرض الامام لما أتعرض له ؟ انا اسير عند الكفار ، عند الروم ، انا ابو فراس الحمداني !

ــ هيا حدثني عن القبور ، والآخرة والاسلام .

راح يفتح عينيه شيئا فشيئا ، كانما يخشى ، ان ينهار الحلم الذي يعيشه . بانت له هي . اخت خير اخ ، وابنة خير أب ، هكذا تحدث عنها المتنبي ، هكذا كانت تأتيه كل ليلة قبل ان ينام . هي اخت سيف الدولة بالذات . خولة ، ست الناس، بلحمها ودمها . شعرها الفاحم يتربع تاجا على راسها ، عيناها الواسعتان تنطلق منهما السهام . بين راسها وصدرها .. آه ، يا شيخ البلاغة ، لا يكفي هنا شاهدك ، ليست بعيدة مهوى القرط فحسب ، انما القرط هنا ، نقطة في بحر . صدرها بارز في كبرياء ، وتحد ، خصرها . آه . ماذا يقال هنا يا شيخ البلاغة ، امرؤ القيس وحده ، يستطيع هنا ، ان يصف . جيدها . ينحدر رقيقا ، ثم يروح يعرض شيئا فشيئا ، حتى ينهض المعجز .

تمثال مرمري . آه . ماذا تقول هنا يا امرأ القيس ؟
نزعت القميص الحريري الذي كان عليها . وثبت اليه . تناولت خديه بكلتا يديها ، وراحت ترفع رأسه اليها .

— أيها الخجول . افتح عينيك . حدق في جيدا . تأمل عيني . حدثني عن الآخرة والقبور الآن . هيا أرني رجولتك .

ماذا اريد عنده ؟ من هو ؟ أاعبث انا ؟
وراحت تتأملـــه .

يكون الان مثله . لو انه لا يزال حيا . دخل السينيغال المنزل، حملوا ابي الى الخارج ، كان يصرخ . عادوا الينا .

وضعوا في عنقه حبلا . حمله احدهم بـــين يديه . ربط الاخر ، الحبل بغصن التينة . كانت رجلاه تتخبطان . رغم انه كان يكبرني بسنتين ، فاننا ، امي وابي ، وانا ، نراه جميعا طفلا في الخامسة او السادسة . كان حبنا له ، اكبر منه مليون مرة . ظل يتدلى من التينة ، طوال الفترة التي كان السينيغال يعتدون علي وعلى امي . كانت الفترة طويلة . كنت في الخامسة عشرة . اغمي علي . استفقت واغمي علي . عندما استفقت اخيرا ، لم اجد احدا ، لبثت يوما وليلة ، لا اقـــوى على الحراك من مكاني . كنت جائعة . خائرة القـــوى وجائعة . كانت الدماء حولي ، ولم يكن هناك احـــد .

قبل ان تدمع عيناها ، احتواها بين ذراعيه بعنف وقوة . خولة اخت سيف الدولة ، بين احضاني في الـــواقع وليس في الحلم او الخيال .. « فالموت اعذر لي ، والصبر اجمل بي ؛ والبر اوسع ، والدنيا لمن غلبا » (١) . ايها الامام ، هذا كل ما

---

(١) بيت شعر للمتنبي .

في الامر . انك لا تهدي من احببت لكن الله يهدي من يشـــاء ؟

ــ اشرب هذا . اشـــرب .

الدنيا لمن غلب ، كانت الجرعة الاولى مرة . الثانية ، اقل مرارة ، الثالثة كانت عذبة . تصاعد الصفاء الى ذهنه . بانت له الاشياء على حقيقتها .

انها اجمل من كل من راى في السينما ، رابحة ، عبلة ، سامية جمال ، اسمهان ، ناريمان . ليس فيها ما يشين اطلاقا . صوتها الرخم يشعر المرء ، بانه جزء منها . بأنها امه او اخته ، او مشاعر الطيبة فيه . يقينا انها تفـــوق خولة بهذه الرقة والحنان . خولة عندما تاتيني في الظلمة ، تاتي شامخة الانف ، عارضة صادة ، تستوضحني في كثير من معانـــي الابيات التـــي انشدتها هنا وهناك ، ثم تسالني لماذا انا متعجرف هكذا ، اوهم الناس بانني امير او وزير ، او وال ، مع انني واحد من عامة المسلمين ، يقول شعرا ، ليس ابدع ولا ارق او اعذب ممـــا قاله زهير ، او ابو تمام ، او مما يقوله ابو فراس . تجلس على حافة السرير في انفة . عندما تياس من نـــزولي على عرش الوهيتي . تمد يدها لتمسك بيدي اسحبها داخل الغطاء ، ثم امتـــزج بها .

ــ لماذا تفعلين بي كل هـــذا ؟

ــ ها ها . على كل حال ، ان ما افعله بك اهون مما كان سيفعله زمردة الهزي الذي يستحوذ علـــي ، او العين الزرقاء هزي الايطالية . انك اولا وقبل كل شيء ابن بلدي .

ــ اعطني كاسا اخرى .

كانت الغرفة تتسع وتتسع ، وكان صدره ينشرح اكثر . والشعور بأن الدنيا لا يجب ان ينظر اليها ، نظرة مجزاة ، وانما كما هي . قضية اعمق . قضية كلية . ترفض من الاساس ، او تطرح للنقاش .

— وما الذي دفعك الى هذا الضلال ؟

— لا شيء . لقد ثقلت الجرة على راسي ، فاسقطتها على صخرة ، لتتحطم دفعة واحدة . ماذا تأخذ على حياتي هذه ؟

— اقصد ، مثلك . مثلك . يليق ان تكون اميرة بقصر ، او ربة بيت بدار كبيرة ، او اختا لخمسة اطباء ، او .. او ما شابه ذلك .

— هذا كل ما استطيع ان اوفره لنفسي ، فهل تستطيع انت أن تحقق لي شيئا ؟

— انك لا تمانعين في الاصغاء الى ما كنت اقول في البهو .
— ابدا لا . ماذا كنت تقول . ايها الجميل ؟
— ان الامة الاسلامية تدهورت .
— هذا صحيح .
— وان كل الامم نهضت .
— هذا صحيح .
— واننا يجب أن ننهض ايضا .
— هذا صحيح . خذ هذا الكاس ايضا .
— هات . وأن نهوضنا يكون باتباع الامام حسن .
— هذا صحيح . من هو هذا الامام ؟
— مصري يدعو الى العودة الى الكتاب والسنة .
— ومن يعارضه في ذلك .

ـــ جميع النـــاس .
ـــ اهوه . ليس من حقهم انني لا اعـارضه !
ـــ وهل انت مســـلمة ؟
ـــ وهل ترأني يهودية او ايطالية او فرنسية او امريكية ؟
ـــ لا ، ومـاذا تفعلين اذن ؟

ـــ اشتغل . ابيع واشـتري ، ككل عباد الله . استبدل تحمل شخص ، على بدني لدقائق ، ببدلة اتصال ، استبدلهـــا بدورها بنقود . بعضـهم خفيـــف . بعضـهم ثقيل . بعضهم ، نظيف ، بعضـهم متسخ ، بعضـهم صحيح ، بعضـهـــم مريض ، بعضهم عاجز ، بعضـهم مقتدر ، لكن كل البدلات سليمة . تعد بما قدر لها من ثمن . اسمع . عندما تكون واقفا في موضـع . على حافة جرف مثلا ، ويهوي بك ذلك الجرف . من تلوم ؟ هل تلوم نفسـك ، او تلوم الجرف ، او تلوم من جعلـــه يهوي ؟ ماذا تقراون في جامع الزيتونة ؟

لم يجبها . راح يتمثل الصورة . جرف . اثنان . عشرة . ملايين ، ملايين الاجـــرف ، ملايين البشر يقفون على حـــافات الاجرف . الاجرف تهوي . هم ايضا يهوون . المواقع تختلف ، بعضهم يغمره التراب ، بعضهـــم في اسـفل سـافلين ، بعضهـــم مغمور النصف الاسفل ، بعضهم مغمور النصف الاعلى . الجميع في الهاوية ، والجميع ضد الهاوية . الجميع يسـعون الى فوق . الفوق كله اجـــرف .

مـاذا اذن ؟

ليكن كل شـيء ، بيد الامام الآن . فما عســاه يفعل . ينشـىء جيوشـا من القضـاة والعدول ، والوعـاظ . ينشـىء جيشـا من جباة

الزكاة . ينشىء جيشا من الجلادين ، ومن الحراس . وماذا بعد ذلك ؟

عليه اولا وقبل كل شيء ان يختار هو بالذات اي السبل يسلك .

ثم عليه بعد ذلك ، ان يجبر الجميع ، على اتباع ذلك السبيل .

سيكون وسيكون .

وسيقول رايه في هذه الفتاة الآسرة . خولة اخت سيف الدولة . سيقرر مصيرها ، ويعلن عن الطريق الذي يجب ان تسلكه .

ايها الامام ، بم تقنع الضالات في المواخير ؟ ماذا تقول لهن . باي مصير تتنبأ لهن . انهن يقلن لك ان كل ذنبنا ، اننا كنا واقفات ، مع الواقفين على حافات الجرف ، وان الجرف هوى بنا .

ـ زد هذا الكاس . زد .

قالت واغلقت عليه الباب ، بعد ان تسترت باللحاف الحريري الابيض ، وهي تودعه ابتسامة ، تتمنى من صميم قلبها ان لا تذوب او تتلاشى مدى الدهر .

عادت بعد حين ، ببدلة عصرية انيقة ، تتشكل من قميص ابيض ، ورباطة عنق زرقاء ، وسروال وسترة داكنة الزرقة . وحذاء اسود ، وجوربين اسودين .

ـ هدية من ابنة بلدك . انك اثر جرح القلب ، فلا تشغل نفسك بالتفكير في امري . ستزورني كل يوم اربعاء . آهاه .

اليس كذلك . زمردة يبيت معي ليلة الثـــلاثاء . الاثنين عند الطبيب . الثلاثاء زمردة وما شاكله ، الاربعاء الزبائن قلائل . الخميس الزيتونيون . الجمعة عابرو السبيل . السبت والاحد طلبة الثانويات والعساكر وبعض المتسوقين وما الى ذلك .

ـــ انني ســكرت .

ـــ اغسل وجهك بالماء البارد . سأطلب لك قهوة . اقرأ ، وحصل ، وكن أعظم جزائري . يوم تكون مثل صاحبك الامام ، اكون في خدمتك . انظف حذاءك ، واغســـــل قدميك ، واطعم كلابك .. ها ها . هيا انصرف ودعني ، لقد كلفتني يوما غاليا .

عندما خرج ، كان زمردة في استقباله بالبهو .

ـــ اهلا . اهلا . سيدي العريس . العريس الجديد .

كان زمردة يتجلى من خلال العينين التعبتين ، في الاربعين ، قصيرا ، نحيفا ، زاخرا بالاعصاب والعروق الزرق ، في حزامه هراوة غليظة ، ثبتت في راسها عدة مسامير . اسمر ، تكسو لحيته وراسه غشاوة بيضاء من الشيب ، في عينيه قحة ممتزجة بذلـــة .

ـــ انت هو سيدي الشاب . العريس الجديد ؟

انه اشبه ما يكون بالكلب الجبان الذي يكشر عن انيابه ، من شدة الخوف . زمردة هذا كلب خائف . زمردة هذا سيهرب لاول رفسة يتعرض لها .

تقدم زمردة منه مزمجرا . اعترض سبيله ، وراح يحدق فيه ، بعينيه الصفراوين . حاول ان يتجنبه . تشجع زمردة ، وقدم رأسه من صدره اكثر . اجتنبه مرة اخرى ، الا ان يـــد زمردة تجرأت ، فارتفعت تمسكه من سترته :

ـــ الا تعلم ان العنابية زوجتي . انا رب المتلاة هنا . وكل

طريق نحو العنابية يمر بي انا . الا تعرف هذا .

ارتفع سـيف صلاح الدين . كانت ارادة صـلاح الدين وحده ، اقوى من السيف ومن الخصم . هوى السيف ، سبقته النار . انطلقت النار من الصدر . احمر السيف قبل ان يمتزج بالدم . النار في صدر صلاح الدين .

هوى زمردة . تساءل هل انه كان مستعدا للسقوط قبل ان يلقاه ، أم ان هذه الضربة من راسه ، هي التـي انت عليه . انفرجت رجلا زمردة في الدرج ، وانفتحت ذراعاه . كان اشبه ما يكون بجلد عنز مبسوط .

شمخ براسه . مر غير مبال . تجمعت النساء . راح انصار زمردة يتأكدون مما جرى . انفتح الباب . خرج .

ساعود لزيارتها . ساقهر الجميع . زمردة والعين الزرقاء والامام حسن ، وابي الحسن الاشعري .

بعد اسبوعين ، عثر على زمردة والعين الزرقاء ، وغلام مطعونين بخنجر واحد . لم يتعرف على القاتل ، حيث لم تكن هنالك اية بصمات . ظن البعض ان الهزيين اقتتلا بسبب الغلام ، او بسبب اقتسام اموال مسروقة . الا ان السلطة القت القبض على الطالب الزيتوني ، الذي ترك طربوشه ، وجبته واضبارته وشيخ التجويد ، والامام حسن ليصير هزيا ، يتبادل العشق مع غادة جميلة ، في ماخور .

حوكم واقتيد الى كيان ، حيث لم يكن أحد يظن انه سيعود يومـــا .

جاري يا حمود ... دبر علي

انقضى السبت والاحد ، دون اية مشاكل .

حياة النفوس خرجت مع القروي الثري ، دون ان يتفطن اليها سوى حمود الجيدوكا . اما خاتم ، فلم يبال ، لم يهتم . لم يكن لديه الوقت الكافي ليسال عنها .

لقد وقع نجاة في حب العنابية .

يطلب ستة . ترتفع انات القصبة ، تطلب جوادا في سرعة البرق . يصب الكأس في جوفه ، ترتمي العنابية في احضانه . ترتفع دقات البندير ، تنبعث الاصوات من كل مكان ، « ارواح ارواح وكي نشوفك نرتاح » . تهتز الارض تحت ضربات رجليه . تبدو له من خلال الضباب ، اصفر فأصفر . يسرع بها الى جناحها . حالما تسترجع هياتها ، ينام في حجرها ، يضع ثديها فوق لسانه ، ويستسلم مغمضا عينيه . تروح اصابعها تعبث بشعره الاصهب . تروح الدموع تنهمر من عينيها .

تتخذ قرارا في شانه .

اشتري له عربة سوداء ، كالتي يستعملها الحكام والقادة ، وكبـــار الاغنيـــاء .

لا ، السيارة تفسده . الولد اهـــوج . مسكين صغير ، والحالة صعبة . لا . السيارة تفسد الولد . افتح له مطعما على شاطىء يكون مبنيا فوق صخرة ممتدة في البحر ، بل ، في جزيرة صغيرة ، ليس فيها سوى مطعمنا ومسكننا . عندما لا يكون هناك احد ، اتربع على الرمل ، في الشمس . يتمدد ، اضع راسه في حجري ، واعطيه ثديي ، تنهمر الدموع من عيني ، حتى يفيض البحر وتغرق الجزيرة . نتلاشى في الماء ، فلا يقوى احد على حصر مكاننا . سنكون جزءا من البحر . سنكون كل البحر .

افتح له متجرا ضخما ، يشتغل كامل النهار ، ويعود الي الليل ، اغسله في الماء الدافىء ، واعطره . احمله الى فراشه يبيت ثديي في فمه ، وابيت ساهرة .

ــ المعلمة فسخهـــا ربي .

ــ اترين ، في آخر عمرها تعشق .

ــ ومن تعشق ؟ تعشـق هزيا ، يحب غيرها .

ــ رسم حياة النفوس الموشم في كتفه يسميه : خاتم .

ــ اترين . تسكره وتقوده الى حجرتها .

ــ الولد شيطان . لا يسكر انما يتظاهر بذلك لا غير .

ــ انعتقـــدين ؟

ـ أفي ذلك شك ؟ لا بد ان النقود التي معه توشك على الفناء . انه لا يشرب الا على الحـــــان القصبة ، ما رأيت هزيا مثلـــه اطـــلاقا .

ـ اذا كان كما تقولين ، فقد عثر على خزنة ذهب .

ـ يا اختي ، والعالم ربي ، يظهر انها ليست غنية ، كما يظن . المراة تنفق كثيرا ، وتعيل اكثر من واحـــــد . هذا حمود الجيدوكا ، يتصرف كزوج ، يأكل ويشرب ويسكر ويلبس ، ويدخن .

ـ ويرقد ايضا ، توليها . أما زال يحبك ؟

ـ دعينا منه . لقد بدأت عينه تحول على هذه البلهاء . لست ادري لماذا لم يسموها موت النفوس. دعينا منه . قلت لك ، وهذا الحاج كيان ، يلبس ، وياكل ويشرب ، ويفعل يوم السبت والاحد ، ما لا يعلم الا الله به ، لربما يقمر ، ولربما يتهزز في مواخير اخرى . وهذا « باي تونس » البواب الذي يقال انه تبعها من تونس ، وانه بدوره ورغم شيخوخته لا يزال يحبها .

ـ يا اختي انا جديدة ، هنا ، ولا اعلم عنها سوى ما اراه . اما الذهب الذي في عنقها فلا احد يستطيع ان ينكر وجوده . انه كنز قـــارون .

ـ انه كله هدايا . المعلمة هذه ، عندما كانت في عنفوانها ، كانت تذبح وتسلخ الرجال ، بنصف ابتسامة . لقد ذهب الحاج كيان من اجلها الى كيان وعاد . هي التي اعادته . كان يحبها والا ما كان يقوى على العودة . قل من يعود من هنالك .

ـ ومن هو الحاج كيان هـــذا ؟

ـ يا اختي العالم ربي ، والاغلب على الظن ، انه عالم كبير من علماء جامع الزيتونة . احبها فقتل من أجل الظفر بها سبعة هزيين دفعة واحــدة .

ـ الحــب صعيــب .

ـ والمشقة اصعب ، وربي يسترها من خاتم هذا ، لو كانت هذه البصلة ، حياة النفوس بحق ، لما كان يهجرها بمثـــل هذه السرعة . هاهو عجل يصعد نحونا . الاخريات منشغلات .

ـ تولي امره . انا تعبة . حق ربي ظهري يكاد ينقسم .
ورفعت صوتها ، تملأ الفراغ الذي احدثه سكوت القصبة والبنــدير :

ـ « وانا وانا قليلة الوالي ، وانا الوحدانية » .

ـ ايه ايه يا علجية الفحلة ، قومي بها . يزين سعدك .

هتفت العنابية ، وهي خارجة من جناحها ، تتأبط ذراع خاتم ، وتتظاهر بالسكر ، حتى يشدها ، اكثر ، فلا تقع .

كانت جد راضية عن نفسها ، وعن صانعاتها ، وعن المغني والقصابين اللذين يرافقانه . وعن حمود الجيدوكا وباي تونس ، وعن كل الزبائن . كل سبت وبركته . وكــل احد وخيره . هذه البنت ، حياة النفوس ، كلها خير وبركة ، فمنذ مجيئها ازدهرت الاوضاع . جميع الاوضاع ، لشد ما تشبهني . انها نسخة مني يوم كنت في مثل سنها ، لولا بعض اللامبالاة والبرودة ، لكانت انا مكررة ، لكن لا يضير . جيل هذا الوقت كله قليل الطموح . بارد ، هكذا احسن والله . ربنا ورحمته . اللهفة هي التي عكرت حياة الاولــين .

الولد لي . سيلبس الحرير ، ويركب السيارة ، ويسكن الفيلة ، ولن يذهب الى كيان . ولن يرهن ذهب امه مرة اخرى . قال ، ان امه في حاجة الى مليون ، سيكون المليون في متناوله . ما قيمة المليون ؟ لا شيء ، خمسة قرويين ، وخمس صانعات جميلات وهذا كل ما في الامر .

— هات ستة هات .

وارتفع انين القصبة .. « يا عين الكرمة واعطني الاخبار » .

— اسمع يا حمود . خاتم ، من الان فصاعدا ، يشرب بالمجان ، هو ومن معه .

أي لعب تلعبه « المكاريرة » ، هذا الطفل خطير . لم يكتف بالصانعة ، تتطاول على المعلمة . عما قليل ، يطردنا جميعا ، ويصفو له الجو . قواه منهارة الان . الان والا فلا ، اذا ما لزم مساعداه الجياد ، كما قدرت ، وحسب ما بذلته معهما في غيابه ، فسارحي ضلوعه .

لكن اذا ما تخلى ، عن البنت ؟

يتخلى او لا يتخلى ، يجب ان يهجر الميدان . يجب ان ينمحي .. أنك تريد ان تلعب دور الهزي مرة اخرى ؟ وما يمنع ؟ ساجد التأييد من الشرطة ، بل ، انني اجده منذ وقت طويل ، منذ عدت من الاشغال الشاقة ! يقال انها الان تشغلهم من يوم ظهورهم . لقد اشار منذ قليل احد مساعديه ، الى ان الولد الكلب ، يلعب ادوارا اخرى في اماكن مختلفة لفائدة الشرطة .

لعل وجوده هنا ، بسبب تقصي اخباري ، او اخبار الحاج كيان ، او باي تونس او اي واحد آخر من رواد المحل . الان او فلا .

ـــ يا معلمة ، لو تستريحين قليـــلا .

ـــ وهل تراني تعبة يا حمود الجيدوكا ؟ انـست لا تعجبني اليوم . ما وراء راسـك الاشيب ؟

ـــ اقصد أن كثيرا من الزبائن يهربون بسبب .. انك ترين كل شيء . فماذا تريدين أن اقول لك اكثر ؟

ـــ « يا جاري يا حمود يا جاري دبر علي . الناس تبات رقود ، وانا النوم حرام علي » .

هتف خاتم ، يستفز حمود الجيدوكا . ضحك مساعداه . ضحكت العنابية بدورها . حاول احد التصابين ان يبحث عن نغم لائق . دق جرس الباب ، دخل عدة عساكر . خرج حمود الجيدوكا من خلف المشرب . راح يكيل ببصره خاتم ، طولا وعرضا ، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة .

ـــ حمود . ماذا طرأ على عقلك ؟

هتفت العنابية ملتاعة ، جـــزعة . تراءى لها ، بشـعــره الأصهب ، بعينيه اللتين لا تستقران في نقطة معينة ، بأنفه الطويه ، بوجهه المستدير الجميل ، ببسمته البريئة ، بقامته الفـــارعة ، بعضلاته المفتولة ، ملقى على الارض ، جثة هامدة . لا لا . حمود الجيدوكا كلب منيب ، يعرف المقاتل ، والولد صغير .

ـــ حمود ، هل نسيت عشرينتك ؟ تذكر الاشغال الشاقة . انها تعرف ، ان كل الهزية الذين يقضون فترة طويلة في السجن او في الاشـغال الشاقة ، يلينون ، ما ان يذكروا العذاب الذي لحقهم . حمود هذا ، لم يرتكب حماقة طيلة السنتين اللتين قضاهما معي . ما باله اليوم ؟ ايغار علي . لقد احبني رغم اللقاء

السريع الذي كان بيننا قبل ان يلقي عليه القبض ، لكن لم يتطور ابدا ذلكم الحب ، حتى يتحول الى عشـق . لقد جاء الى هنا بصفته ، احد المعارف القدامى في حاجة الى شغل ، وليس بصفة اخرى .

انه يختلف تماما عن الحاج كيـــان .

ـــ « يا جاري يا حمود يا جاري دبر علي . الناس تبات رقود وانا النوم ، حرام علي . يا عمي الخياط . خيط لي جبة سورية » .

ـــ خاتم . لا . لا اريدك ان تتخاصم معه . انه لا يمثـــل شيئا هنـــا .

ـــ ولكنه هو الذي يهاجمني . اما ترين ؟

ـــ اما اليـــوم او فـــلا .

ـــ نعم . او فلا . هل انت رجل ؟ اواثق من انك رجل ؟

ارتفع هتافه القصبتين الى السماء :

كم غيمة ، طافت عطافت ثم حلا لها ان تنزل غيثا . كم من رياح هبوب حملت السحـاب ، كم من رعد واعـــد ، ومن برق صادق . كم جلبت ربوتنا اليها وكم جلبت . مع ذلك ، لما ينبت بها عشـــب .

الحاج كيان

تتالت المراحل ، حتى تداخلت ، وصارت الرحلة ، رحلة وكفى .

هكذا دائما . عندما تتحول المرآة الى بؤرة ، تنعدم المراحل . ينعدم التمييز بين حدودها . واروع حالة ، يكون عليها المسافر ، ان يتخلص من الشعور بالمكان والزمان ، ان يتحول الى دودة مستسلمة لالتهام جسم ، بدل جسم مستسلم لدودة .

ينزل زمان الازمنة . وتنزل ابدية الابد ، تتحول الجبة الى حلاج ، ويتحول الحلاج الى جبة . انها مرحلة التمثل . مرحلة المرور الى خاتمة المطاف في الرحلة .

في تلكم الحال . تعود الكينونة . وتعود الماهية . ولا يبقى لزمن الوجود معنى . فمتى لم يكن الحلاج سوى ذاكرة ، ومتى لم تكن الجبة سوى ذاكرته : ومتى لم تكن الذاكرة غير افرازات .

عند ذاك ، يتمدد الحاج كيان . لا اهمية للغليون . ينقطع الجسر او لا ينقطع . العودة ليست عليه . لا دور لحلوى الترك او للعسل . الربيع مزهر ، والنحلة حرة طليقة ، الديدان لا اهمية لها وعصا عزرائيل بدون وزن .

اذا ما ضاعت الذاكرة . فمن اين ياتي الالم ؟

ترعد او لا ترعد . تمطر او لا تمطر . تتصف او لا تتصف . كل ما هنالك ممتزج في بعضه . ويكون ولا يكون . ولا يكون ويكون .

ينام بعينين مفتوحتين . يبول . يتغوط . يبرد . يدفأ . لا يهمه في اخر الرحلة شيء . لقد جاء من اجل ذلك .

يفقد الضوء لونه . تفقد الظلمة لونها . تمر العشرون . يقال له في كيان اننا عفونا عنك ، ومستعدون لاعادتك دون غيرك الى موطنك . يحاط علما بمصير الاخــــوان . لا يبحث سوى عن المنابية . يعثر عنها بيسر . لقد مهدوا له كل شيء .

يستيقظ الحاج كيــان يــوم الاحـــد في الساعة التاسعة صباحا . يستخرج من السلة شريحة لحم مقلية ، ياكلها ، يستبدل ثيابه وسرواله . يعيد ما كان الى ما كان . يقذف بالحجرة التي ربطها بالخيط الى اعلى . يتثبت باغصان التينة ، يصـــعد الى الصخرتين . يستريح قليلا ثم يستانف رحلة الصعود . عندما يجد نفسه في الاعلى ، يبادر الى سحب سلته ، ثم يكور الخيط ويربطه بالعروة وينطلق مبتعدا عن الخق دون ان يتامله او يلقي عليه ولو نظـــرة اخـــيرة .

الخق في الداخل . في الراس وفي القلب ، ولا داعي لتامله في مكان آخـــر .

ينزل الى العين في اسفل المقبرة . يغسل تبانه ، وسرواله . وينتظرهما قليلا ، حتى يقطرا من الماء ، ثم يعيدهما الى السلة وينطلق .

تكون الساعة العاشرة او العاشرة والنصف . يذهب مباشرة الى الحمام . تأتي الثانية عشرة . يسرع الى المسجد . يصلي عددا غير محدود من ركعات منفردات ، قبل صلاة الظهر . يصلي الظهر جماعة . يتناول المصحف . يضعه امامه . ينطلق في الترتيل . يرتل الآية على قراءة ، ثم يعيدها على قراءة ، حتى يرتلها على كل القراءات . لا يتوقف الا لاداء الصلوات . يتعشى تمرا ثم يواصل حتى الفجر . يغفو قليلا ، ثم يستأنف بعد الصبح ، حتى ترتفع الشمس . يغادر الجماعة التي تحلقت حوله . يمر على لبان ، يأكل تمرا ولبنا ، ثم ينطلق نحو الماخور .

ـ الحاج كيان جاء .

ـ جاء بهيئة جديدة .

ـ النور يشع من وجه الحاج كيان .

ـ اين كنت يا الحاج كيان ؟

ـ اما كنت عند زوجتك واطفالك ؟

ـ احقا كنت عالما من علماء جامع الزيتونة ؟

ـ كيف تمكنت من النجاة من كيان ؟

ـ وهل كانت العنابية تستحق كل ذلك ؟

في تلك الساعة ، عادة ما يكون المحل خاليا ، الا من النساء المنهكات . يجلس في البهو حول منضدة . يأتيه حمود بقهوة

تركية مرة ، يتسابقن الى الاقتراب منه ، وهن يتجذبن المقاعد ، ويمطرنه بالاسئلة . يمد الحاج كيان يده الى جيبه ، عندما يكتمل جمعهن . يستخرج رزمة الحلوى ، يمسكها ويروح يتأملهن ، بينما يلزمن هن الصمت .

— من ؟ من منهن تكون صاحبة الشيء اليوم ؟

ان صاحبة الشيء التي تستلم القرطاس منه ، وتتولى توزيعه على الفتيات ، تكون هي مضيفته تلك الليلة . تكون هي ملكة الحل . كلهن يتقن الى استضافة الحاج كيان ، ولئن كانت الوهرانية ، هي في الغالب ، صاحبة الشيء ، فان الحاج كيان ، يفلت مع ذلك من اسبوع لآخر ، ويتحرر . يكون حرا لواحدة منهن . يتوجها ، ويبيت عندها . يبيت في غرفتها . سواء كأب ، او كزوج ، او كأخ . الحاج كيان وحده يفرض رغبته ، ولا احد يستطيع ان يفرض عليه وضعا .

— اين حياة النفوس ؟

— غائبة . غائبة لايام عديدة على ما يظهر .

— واين حمود ؟ لم لم يأتني بقهوتي !

— حمود مريض . ها هي علجية تعد لك قهوتك .

— واين العنابية ؟

— العنابية في جناحها .

— هكذا اذن ؟

اعاد رزمة الحلوى الى جيبه . تبادلت النساء النظرات .

جاءت علجية بالقهوة، مترنمة « انا قليلة الوالي . انا الوحدانية » .

ترددت أصوات النساء التسعة عشرة . « وانا وانا » . اكتمل التقاء اصواتهن في نغمات واحدة من اللحن ، امتلأ المكان بالانين . كان انينا يحمل شحنات مختلفة . هناك الم مبرح . وهناك شوق عارم . هناك وهن بالغ ، وهناك يأس مطبق .

كانت البسمات على وجوه بعضهن ، لكنها كانت بسمات كاذبة . كانت عيونهن ملأى بدموع تتمنى الانطلاق .

ـــ اعطنا الحلوى يا الحاج كيان .

ـــ اعطنا يا سيدي الحاج .

قطعت علجية المناحة . سر الحاج كيان لذلك . احتار لمن سيمنح رزمة الحلوى . من ستكون صاحبة الشيء اليوم ؟

ـــ اين العنابية ؟ ليس من عادتها ان تتخلف عن استقبالي .

ـــ ايه . « من ينفكرك يا الرغدة (١) يوم العيد » ؟

قالت الوهرانية ، وقد ساءها ان لا يبادر الى جعلها ـــ كالعادة ـــ صاحبة الشيء . يطول به الامر ، وتأتي الجمعة ، ويصعد من تلقاء نفسه . لن اعد له ، لا جوزا ولا لوزا ولا شايا . ساعد هذه المرة قارورة انيزات واسقيه . اسكر في حضرة الحاج كيان ، واساله الف سؤال وسؤال . هل يحبني ؟ ماذا يعجبه في ؟ هل ما زال يحب العجوز العنابية ؟ هل له منزل وزوجة واطفال ؟ اين يذهب يومي السبت والاحد . اذا لم يجبني ، ابكي ، وابكي حتى يفعل . . لكن انا هل احبه ؟ ومن لا يحب الحاج كيان ؟ لا . لا . ليس الحب العادي . انما حب الروح للروح . حب الموت . حب كيان . حب الحاج كيان للعنابية .

---

١ ـ خبز الشعير .

ـ اسمعن يا عاهرات . الوهرانية تعشق الحاج كيان . الوهرانية تموت في حب الحاج كيان .

رفعت الوهرانية صوتها، تعلن بانفعال . رفع الحاج كيان بصره اليها . حاول ان يرى ما خلف جبهتها السمراء . قهقهت النساء ، واعلن بعضهن :

ـ ومن يجهـــل ذلك ؟

بينما اعلن البعض الآخر :

ـ ايتها الغبية . من لا يحب الحاج كيان منا .

في حين اكدت علجية :

ـ ايتها الغافلات ، ليس الامر ، من التي تحب الحاج كيان ؟ المسالة كلها هي ، من يحب الحاج كيان ؟

ـ ما هذه الضوضاء ؟

خرجت العنابية من جناحها تترنح سكرا واجهادا ، تساءلت باحتجاج . انها تخشى كل تجمع . لقد كان تجمع البارحة خطيرا :

تقدم حمود الجيدوكا يريد خاتم . كان الشر يتطاير من عينيه . شر لم تره في عيني احد ، منذ زمن طويل . تجمع الزبائن وبعض النساء . كان الجميع ـ عداها ـ واثقين من ان خاتم ، سيفعل بحمود الجيدوكا ، ما فعله بالبوكسور . لا يعلم المرء اين يكمن الشر . والتجربة الطويلة علمتها ان لا تحتقر احدا مهما كانت قيمته . ان هناك دائما وابدا ، في قرارة المرء ، في آخر جرابه ، شيئا يقوله في اللحظة الاخيـرة :

ـ هيا اخرج هنا ايها الطفل . ستتعلم كيف تحترم حمود

الجيدوكا في المستقبل .

اسرعت الى جناحها ، احضرت هراوة . وقفت خلف حمود الجيدوكا وهوت على راسه ، هاتفة :

ـ لن اسمح لاحد بالنيل منه . هاك يا كلب . شبعت خبزا في ظل العاهرات . بهت الجميع . اسرعت علجية تجره الى المشرب . عادت مسرعة الى جناحها . وظلت تزمجر . قال خاتم لمساعديه :

ـ هيا نخرج . لبثنا اكثر مما يجب .

ـ آه . هذا انت يا الحاج كيان .

ـ نعم انا . اليوم الاثنين . هاك رزمة الحلوى وزعيها . انت صاحبة الامر اليوم .

ـ لا حلوى ولا صاحبة الامر ولا عليهم يحزنون . اعط لواحدة من العاهرات . انا مريضة .

ـ « حالي مضرور يا بوطيبة عجل داوني » .

صدحت علجية . ضحكت النساء ضحكة مرة . ما كان يليق باحد ان يمس بكرامة الحاج كيان . المرأة هبلت بحق .

ـ هاتها هنا . احترت في توزيعها .

تجرات الوهرانية وانتزعت رزمة الحلوى . فهمها الجميع . حتى الحاج كيان فهمها . حتى العنابية ، التي استشعرت حجم فعلتها ، فراحت تبحث عن عبارات اعتذار .

ـ لن اسمح لنفسي بالرحيل اليها مرة اخرى .

قال في سره ، ثم قرر أن الامر ليس بيده . لقد تمثل للمرة

الاولى منذ سنوات طويلة نفسه ، ولم يكن ينتظر ذلك ابدا . لو كانت البنت حياة النفوس هنا ، لكانت هي صاحبة الامر ، فهي نسخة طبق الاصل لها .

ـ هيا معي الى جناحي يا الحاج . اريدك في مسألة جد هامة . تعال .

جرار القطران

ـــ انا مجنونة يا الحاج كيان . مجنونة طولا وعرضا . لم تبق في ذرة غير مجنونة . يا الحاج كيانلم يعد ممكنا ابدا ، انقاذا الجرة . لقد ملأوها قطرانا ، وصعدوا الى قمة جبل صخري ، وقذفوا بها . انها لا بد أن تنكسر . كان لا بد ان تنكسر . وهذه المرة ستنكسر لا محالة .

اتذكر شيئا من ماضينا يا الحاج كيان ؟ يومذاك كنت احبك . احبك بحق . كنت عمياء بحبك ، لا ارى من العالم سواك . كان ذاكم الحب ، طبيعيا يا الحاج كيان ، كان حب فتاة في العشرين بئيسة شقية ، لشاب قوي كريم الخلق ، كنت الحياة الخارجية التي افتقدتها . تعلقت بك لاجد فيك نفسي .

لكن جنوني اليوم ، ليس له مثيل اطـــلاقا يا الحاج كيان . اكثر من جنون البنت . واقوى من جنون المرأة . انه الشـيء الذي يعوزني طيلة الخمس والعشرين سنة من حياتي الشقية هذه .

عندما يكون معي ، ويكون ثديي في لسانه ، اود . اتدري ما اود لحظتها ان اكون ؟ سحابة ، تطوف في السماء ، بحثا عن حقل برتقال ظامىء ، لتنزل غيثا يسري في العروق .

انه يحملني بين ذراعيه ، يرقص بي ، يقبلني . يدخلني الى غرفتي ، يقذفني على السرير ، يمتزج بي من اعماق قلبه ، ثم يضع ثديي في فمه ، ويستلقي على ركبتي ، وينام .
ها ها ينام . وراسه فوق صدري .

ينـــــام .

ينام وثديي بين شفتيه ؛ وانا ابكي .

ابكي كما تبكي السحابة فوق حقل برتقال ظامىء .

ساشتري له البدلات الثمينة . يخرج كل يوم ببدلة وقميص وحذاء . ساشتري له سيارة . ساشتري له تمرا ، ساملأ جيوبه بالنقود . اتدري ماذا فعلت قبل ان نحضر ؟ رهنت فيلتي وعدت . رهنتها واعطيته المبلغ ، وها انني هنا . انا في حاجة الى نقود اكثر . الى مزيد من النقود . ان تكفيني عشـــرون عاهرة ، ولا عشرون بيتا ، لن يكفيني سكان هذا البلد . لا جيشها ولا طلبتها ، ولا عمالها . لا اريده يشعر بالحاجة ابدا . ابدا .

آه . انني جد متعبة . لم انم ليلة الاحد . لم انم البارحة ايضا . لم اتوقف عن الشراب . ها ها ها . انه يسقيني بيده .

ــ هذا خــاتم ولا شك .

ــ ومن يكون غيره يا الحاج ؟

ــ واين حيــاة النفوس ؟

ــ أوف . حياة النفوس مسكينة لا يهمها شيء في الحياة . انها مع فتى قروي في فيلتي . آه ، ذكرتني . هاك هذا الوصل لتستعيد الحلي الذي فيه . لقد رهن المسكين حلي امه ، ليجد ما ينفق . تصور الزمن الغادر . هاك المبلغ ايضا . استرد الحلي ، واذهب الى امه في اول فرصة تتاح لك يا الحاج يا اخي .

ــ هكذا اذن ؟

ــ لا . لا تقل شيئا آخر . اريد ان اسير عمياء حتى اقع في الحفرة . كم هو جميل ، ان يطول انتظار سائرة عمياء مثلي للوقوع في الجب . تنتظر وتنتظر ، وتحاول ان تيأس فلا تقوى . ان التي تفتح عينيها في مثل هذه الحال ، غبية بليدة ، وانا ، اقول لك الصح ، ظلت عيناي كثيرا مفتوحتين . لم اغمضهما ابدا ، يا الحاج ، منذ افتقدتك . تجمعت لدي مبالغ كبيرة . حصلت على ما شئت من الذهب والجواهر . اشتريت هذا المحل ، قبل ان ابلغ الاربعين . اشتريت فيلة .

ولكن ماذا بعد كل هذا ؟

ان جرة القطران ، يجب ان تتحطم ذات يوم . كل جرة مصيرها الانكسار والتحطم . لن اتخلى عنك يا الحاج . ستظل بقدرك واحترامك . ستظل سيد الدار .

ــ وماذا في امكاني ان اقدم لك ؟

قال الحاج كيان ، متكلفا الهدوء . لم تتفطن العنابية الى السخرية التي لفظ بها جملته ، او الى السحابة السوداء التي خيمت على ملامحه . الولد شيطان رجيم . كلب . هذا الولد لص وليس هزيا . حاشى ان يكون الهزي من هذا النوع . سيطر على

حياة النفوس بالقوة . ربما يكون عراها ، قبل ان يعري امه . ربما هذا الذهب المرهون لها ، وليس لأمه كما يدعي . ربما لا يعرف اي ام اطلاقا . ها هو يبلغ النبع . يستولي على المعلمة ، ويتمكن في يوم وليلة من رهن فيلتها . سينفق بسرعة هذا المبلغ . ربما ينتزعه منه آخرون . اكيد ذلك . هذا الولد ، لا يكون الا عضوا في عصابة لصوص . بعد غد يستولي على ذهبها . بعد ذلك يرهن المحل . آخر الامر ، يهجر المحل ، الى محل آخر ، او ينتقل الى مدينة اخـــرى .

ــ اريد نقودا . نقودا كثيرة جدا يا الحاج كيان . اريــد ان لا تنقطع علي النقود اطلاقا . لا بد اولا من استبدال العاهرات كلهن عدا حياة النفوس والوهرانية . أنت مكلف من الآن بالبحث عن ثماني عشرة فتاة في جمال حياة النفوس . اريد ان اجلب كل الاعيان الى محلي . اتفهم يا الحاج كيان ؟ اريد ايضا ، ان تبحث لي عمن ياخذ مكان حمود الجيدوكا . اريد ايضا ، أن تصبح مدير المحل . فانا سئمت الجدران والعاهرات والعسكر والطلبة ، والهزية . اريد ان اركب الى جنبه ، عربة رياضية مكشوفة ، او قاربا ابيض ، وشعري مشدود بمنديل وردي ، ونظارات سوداء على عيني . وننطلق . ننطلق دون توقف . لا اتمنى شيئا غير ان نرتطم بصخرة قوية ، فتضطرم فينا النار ، ويصعد الدخان ليمتزج بالسحاب ، وينزل مطرا يلمس كل شبر من الارض . او تبتلعنا موجة عارمة ، فتعطي الى كل قطرات ماء البحر ، شيئا منا .

ــ نستطيع الشروع في تنفيذ مشروعك الكبير هــذا ، ان نقيم عرســـا .

ــ اوه . عرسا . اوه عرس . يرحم ذاك الفم . نسيت العادات والتقاليد يا الحاج كيان . عرس بغل . ستحضر عنابة

وقسنطينة وسطيف والاغواط والجلفة والاصنام ومليانة . هذه جميعا شاركت في اعراسها ، بأجمل البنات اللاتي كن في محلي ، وبكل الاعيان الذين كانوا في قبضة يدي . علينا أن نتصل بالجميع . من الشرق الى الغرب ، وستكون المشاركة في عرس بمحل ذي ستة ابواب مثل محلي هذا شرفا للجميع .

ـ سيسر الكثيرات ، طلب النقلة الى هنــا . لقد فكرت في هـــذا .

ـ تعال اقبلك يا الحاج كيان تعال . يا حبيب العمر . يا من لا يستطيع احد أن ينزله من عرشه . تسافر أنت الى الشرق ، واسافر انا وخاتم الى الغرب .

ـ اسمحي لي يا المعلمة . انا لا استطيع أن أكون بعيدا يومي السبت والاحد .

ـ اوه . السبت والاحد . انا ايضا لا استطيع ان اكون بعيدة . في امكانك ان تتفرغ لي يا الحاج سبتا او سبتين . انني لم اسألك ابدأ ، أين تكون في هذين اليومين .

ـ لا يفيـــد ذلك كثيرا يا عنوبة ، كلنا تلك الجـرة الملأى بالقطـران .

ـ البنات يقلن انك تكون مع اطفالك وزوجتك .

ـ البنات المسكينات خيالهن من الحياة الخارجية جد خصب يا عنوبة . انت الوحيدة تعرفين ماضي وتكويني .

ـ هيا دعنا من الذكريات الميتة . وهات ما عندك من امور العــرس .

ـ انت تعرفين الاصول .

ــ نعم . يجب ان يكون هناك حج . او ختان ، العرس يجب ان يكون له وجه حقيقي . ومن يعارض ذلك ؟ لنقل مائتين .

ــ لا نقل شيئا . لا يحسب الا الشيطان . موسم الحج فات . وحينئذ لم يبق امامنا سوى الختان ، الفقراء كثيرون ، وأبناؤهم يمـــلأون الدنيـــا .

ــ تتفق انت مع من تتفق ، بسرعة يا حاج . وترتب الامر بعد ذلـــك .

ــ اعتقد انه في امكاننا ، ان نوجه استدعاءات كتابية الى جميع الاماكن ، ونستعمل الهاتف ، كلما كان ذلك ممكنا .

ــ تول كل الامر . انا علي الانفاق ، وانت عليك اقامة عرس بغل لم يشهد تاريخ المواخير مثلـــه .

ــ علي وعلى ذراعي .

قال الحاج كيان ، ثم خرج . طلب الوهرانية وعلجية ، افضى لهما ببعض الاسرار ، وطلب منهما بعض الايضاحات ، ثم انطلق .
اتصل بصاحب الحشيش الذي يزوده كلما احتاج . افضى اليه بأمر العرس . وعده بالاجابة القاطعة في المساء .
في المساء ، قـــال له :

ــ بدل ان يختن ولد واحد في اسرة فقيرة ، لماذا لا نجمـــع اقصى ما نقدر على جمعه من ابناء الفقـــــراء ، ونختنهم باسم محسنة ؟ نتفق مع ذويهم على احضارهم في يوم معين . نتفق مع طبيب أو مستشفى ، او خاتن . نشتري للاطفال ، ببعض المبلغ هدايا وربنا ورحمته . اقيموا انتم العرس الذي تودون في ذلكم اليوم . لقد تمكنت حتى الان من الحصول على موافقة عشرين ابا . وانا متأكد ، من ان الرقم سيتضاعف نهار الغد . اربعون طفلا عدد

لا باس به . ان معظم البلديات لا تتجاوز هــذا الرقم في احسن احوالها .. بين المائتين والمائتين والخمسين . أنت اقرأ حساب الظروف الخارجة عن الحساب . وانا علي حسن التصرف .

ــ هل يمكن لي ان استوضح اكثــر . انت تعلم ان أمور النساء صعبة . الولايا . لا ينبغي ان يشعرن بادنى غبن .

ــ أنا افكر هكذا : دجاجة بالف على اقصى تقدير . عشرة كيلو كسكس بالف . سكر وقهوة وزبدة بالف . جبة للطفل بالف . يمكن أن نحصل علي بعض التسهيــلات . يمكن ان يكون عدد الاطفال اقل ، يمكن أن يكون اكثر . مائتان . مائتان وخمسون كما قلت لكم . لا نكون احسن من البلديات . هذا هو اسلوبها في التبرع بالختــــان .

ــ ليكــن .

قال الحاج كيان ، معلنا عن التزامه باسم موكلته ، وقصد راسا المطبعة . ستكون اول دعوة كتابية . ساطلب كتابتها بماء الذهب . الامور تكون منظمة ، مدققة .. « الى السيدة فلانة . بمحل كذا .. يسر السيدة العنابية ، صاحبة محل كذا . أن تدعوك لحضور العرس الذي ستقيمه بمحلها يوم كذا ، بمناسبة ختان اربعين طفلا . ابناء الفقراء والمعوزين » . يكون الاستدعاء بأربع لغات . الفرنسية والاسبانية والعربية والانكليزية . نرسل منه حتى الى اوروبا . يجب ان يكون اعظم عرس . لم لا ؟ محل بستة ابواب . فيه عشرون غرفة . صاحبته ، لا تزال تنحدر الى العالمين في العشــق .

من سكر يتمم سكرته . ومن سهر يتمم سهرته . يــدوم

العرس خمسة ايام . من الاثنين الى الجمعة . يجب ان احضره كاملا . لا يليق . بل ، لا يمكن ، مهما كان الامر ، ان اتخلى عن السبت والاحد .

الخلوة تعيدني الى نفسي . تمدني بالحياة ، وتربطني اليها .

ـ بعد خمسة عشر يوما يكون العرس . كل شيء جاهز . اعدي نفسك للاسبوع العظيم . تمولي بالخمور ، والكحول ، من الان .

العرس عرس •• وان كان عرس بغل ••

لاول مرة ، في حياة الحاج كيان ، تنقضي الايام دون ان يشعر بها . يمر الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس ، وتأتي الجمعة ولا يتفطن الى ذلك .

كانت الاشغال كثيرة جدا ، وعقدها اكثر الهاتف ، فبالاضافة الى انه لا يحسن جيدا استعماله ، يندر أن يجد صاحبة محـــل في موضـــعها .

من يطلـــبها ؟

من اين ؟ انتظر ، انها منشغلة مع زبون ! وانت من تكون ؟ اهاه معلمتك غنية حتى تستعمل كتـــــابا وموظفين . نحن هنا منشغلات ، بالذباب . هل عندكم فراغ ؟ كم عمرك ؟ الى ان تأتي المعلمة ، بعد نصف ساعة احيانا ، واحيانا بعد ساعة كاملة . تثرثر بدورها ، كأنما تتكلم من قعر بئر ، او تستيقظ من نـــوم سنة كاملــــة .

ـ اليوم الجمعة يا الحاج .

قالت الوهرانية مبتسمة . تعمدت ان تقف قبالته ، وان تلفت نظره اليها . سمراء . طويلة . كل شيء فيها مستقيم منسجم وجذاب . حيوية . مرحة .

ـ من اين عـــدت ؟

ـ اليوم الجمعة يا الحاج . اهكذا تنساني بسرعة . اليوم موعدنا مـــع الطبيب .

ـ شغلني هذا العرس ، وهذا التليفون .

ـ آخر عرس يعري كما يقول بجحا . الم تنته منه بعد ؟

ـ هذا المساء اضع الاستدعاءات في البريد ، وينتهي كل شيء بالنسبة لي انا . تبقى بعض امور خفيفة ، في الامكان الانشغال بها نصف يوم ليس غير .

ـ اليوم الجمعة يا حاج . انسيت ؟ هل تريد نقودا ؟ لقد وفرت المبلغ ، هل تريده .

ـ لا يا بنت الناس هذا السبت لا احتاج .

شعر بالعطف عليها . شعرت باعتزاز كبير لاستعماله معها هذا التعبير : بنت الناس . كان ابي يستعمله مع امي عندما يكون راضيا عنها . عندما يريد ان يعبر لها عن مسؤوليته نحوها . لعله ايضا ، يريد ان يشعرها بانها محللة له .

ـ وهل تريد ان اعد لك شيئا معينا ؟

ـ اجمعي لي ما تستطيعين من اخبار صاحبنا . اشتري لنا

دجاجة محمـرة .

ــ ونبيـــــذ ؟

ــ ونبيــذ ايضـــا .

ــ لا تتاخر يا حاج .

انصرفت . تبعها ببصره حتى اختفت . انبعث صوت علجية هاتفا « انا قليلة الوالي » . دق الجرس . رن الهاتف . « طلبت الاغواط . اليك الاغواط . لا تقطع » .

دخلت المعلمة ، مرهقة ، كأنما كانت تركض . تساءلت :

ــ اين وصلت يا الحاج كيـــان ؟

كان في صوتها جفاف بين . شعر الحاج كيان بذلك . وفهم السبب . لقد طلب منه اللص امس ان يحضر له قـــارورة بيرة ، فلم يلب طلبه . وقف . تأمله من حذائه الى شعره الاصهب المروي بالدهان . ولم يجبه ، خفض بصره ولم يكرر طلبه . يريد ان يختبرني ولا شك . لو لم يكن نذلا ، لكرر طلبـــــه ، ولما شعر بأي مركب نقـــص .

ــ انني اسالك اين وصلت يا الحاج ؟

ــ انني في الاغواط . عندما انهي هذه المكالمة ، اكون قـــد تحدثت مع كل المحال التي بها هاتف .

ــ والاستدعاءات ؟

ــ هذا المساء تنطلق . هل اوجدت المبلغ ؟

ــ طبعا اوجدت المبلغ . ومتى قلت انني ابحث عنه . سيمر بك خاتم بعد قليل ويسلمه لك . غدا تذهب الى الفيلة وتحضر

وانسـانية ، في مثل هذا الجو بالذات يجب أن يفهم المرء ظروف غيره البنت حياة النفوس . ذهبت ليومين فبقيت عشرة . لا تنس ان تطلب من القروي المبلغ المترتب .

ـ غـــدا الســـبت .

ـ اوه . غدا السبت ! غـــدا السبت . سئمنا من اسباتك هـــــذه !

ـ غدا السبت ، وبعد غد الاحد . عنوبة ، الم نتفق على ان لا يتدخل احد منا في شؤون الآخر ؟

فكر ان يقول لها انه مستعد لمقاطعة المحل نهائيا . لقطع حلم السنوات الطويلة في ان يعيش قربها . لم يكد يعرفها بتونس ، حتى فصل عنها ، وظل يحلم بالعودة اليها . ظل يحلم خمســـا وعشرين سنة بلياليها وبأيامها ، وعندما عاد ، لم يجد الا اسمها ، او فضلها ، وهو لا يزال ينتظر عودة البنت ، التي حملته من رجليه ، مستعينة بزميلاتها الى غرفتها ، وشقت قلبه بعينيها الجميلتين ، ووضعت فيه حبها . استطاعت ان تزعزع جامع الزيتونة بسواريه وبمشـائخه وبفقهه ونحوه وصرفه وتجويده ، وتحوله الى هزي ، يحج الى كيـــان .

لكـــن لا .

المراة مريضة ، وسينقشع الضباب الذي يغلف عينيها وترى الحقيقة . المراة مسكينة ، تودع اخر ما فيها مـــن انوثة وامومة

الحقيقة . المراة مسكينة ، تودع آخر ما فيها من انوثة وامومة

بالتدقيق . ان عري اجساد ، هذه الولايا ، يعكس عري واقعهن ايضا . ليس لديهن ما يخفينه . وكل من ياتي الى هنا ، ليس لديه ما يخفيه ، في لحظات معينة . طيلة لحظات تواجده .

ــ « احبابنا يا عيني بالروح جاروا علينا » .

قطع الصوت حبل الخواطر المتدفقة في ذهن الحاج كيان . رفع بصره يبحث عن العنابية . لم يجدها . جاء الصوت من الاغواط يقدم له المعلمة : « ساتي وسارقص بنفسي في عرس احبابي . سيأتي معي ســـرب من غزلان وظباء الصحراء . ســـــلم على العنـــابية » .

جاء خاتم ، ينظر الى الجدران الاربعة في وقت واحد ، وقف قليلا ، ينتظر اية حركة ستصدر عنه . ظل الحاج كيان ثابتا .

ــ وكم هو هذا المبلـــغ ؟

ــ مائتان وثلاثون الف فرنك .

كان ينتظر ان يساله ، كيف لم تخبره المعلمة ، فينهره ولو بلطف عن التدخل في امور خاصة بينه وبـــين المعلمة لكن اللعين ذكي ، يستطيع اخفاء عواطفه في الوقت اللازم .

ــ الا ترى انه كثير جدا . العرس اولا وآخرا ، عرس بغل .

لم يجبه . لم يحن اوان الاصطدام به بعد . من اجلها ، من اجل المسكينة ، يجب ان لا يصطدم به هو . الجرة المـــلاى بالقطران ، لم تنكسر بعد ، ولتاخذ نصيبها من الارتطام قبـــل ان تنكسر . هي التي تقول ذلك . هذا ما اعطاها حظها ، فلتنعم بما أوتيت . لكن اللص الكلب ، سيتلقى الدرس الذي لن ينساه . سيتعلم معنى اللعب عند انوف حاج كيان .

ــ اربعون ولدا سيختنون . والعرس عرس وان كان عرس بغل . ما كنت آظن ان هزيا مقبلا على الوسط ، يستكثر المبالغ

التي تخرج من جيبـــه .

ـ انت صعب يا الحاج كيان . هأ هأ هأ ، يجب أن تكون من اتباعي حتى استفيد من تجربتك الكبيرة .

لم يجبه . ظل ينظر الى يديه ، اخرج المبلغ . كان معدا في غلاف رسالة . فهم الحاج كيان ، ان العنابية هي سلمته له . وانه ليس من ثمن رهن الفيللا .

عندما وجد الحاج كيان نفسه في البهو ، لفت انتباهه رنين غير عادي لجرس الباب الخارجي. اسرع « باي تونس » متعثرا ، فتح الباب . ملأته حياة النفوس . انتزعت اللثام عن وجهها ، ثم اللحاف . كانت فرحة . فرحة اكثر مما يجب بالنسبة للجو العادي .

ـ انت هنا يا حـــــاج . اشتقت لك كثيرا . اشتقت لكم جميعـــا !

رفعت صوتها في البهو ، وهي تتقدم بخطوات عجلى نحوه . تجمعت النساء في شرفات الطابقين . رحن يثرثرن حولها بمختلف التعليقات .

ـ « أحبابنا يا عيني . رحنا وراحوا عنا . ولا حد منا اتهنا . عيني يا عينـــي » .

امتلأ الجو بكلمات الاغنية ، عانقته . امسكت بيده ، وراحت تضغط عليها .

ـ هيا معي الى غرفتي . عندي ما اقوله لك يا حجوجة . كيف أنتن يا بنات ؟

ـ « وانا وانا ، وانا الوحدانية . انا تليلة الوالي » .

ــ وانت يا حياة . لم تسألي عن خاتم .

انها هي . هي بالذات ، نفس القامة . نفس الشعر . نفس الهيئة . نفس العينين . نفس العنق والصدر والخصر .

هكذا كانت العنابية ، قبل خمس وعشرين سنة .

عندما خرجت من برودتها . صارت هي . لا حول ولا قوة الا بالله . لو لم تمت العنابية في ذاكرتي ، ولو لم تخب جمرة حبها في صدري ، لما كنت اتجاهل حتى الان وجود حياة النفوس هنا .

انك لم تتجـــاهلها .

لقد لاحظت ذلك منذ اليوم الاول لدخولها هنا . بل ان قلبك اهتز يومذاك . لكنك قلت : اللعب معها لعب بالنار . وزمن اللعب بالنار ولـــى وانقضى . كنت تسخر من باباي البوكسور ، لانه عشقها . كان في نظرك زمردة الثاني ، ينتظر من سيدق انفه . لقد قنعت بها طيفا . خولة اخت خير اخ وابنة خير اب . لقـــد تقوقعت على نفسك مرة اخرى . الاشعري ، وحسن ، والمتنبي ، وطالب التجويد ، ينبعثون فيك من جديد . لا . لقد ماتوا جميعا . ماتوا في كيان ، بل في الطريق اليه .

ــ آه جئت يا بنت . هل اتم لك باقي المبلغ . اتفقنا على اربعة ايام ، وها أنت تبقين قرابة اسبوع . كم ليلة قضيت معه .

ــ لم اعد يا معلمة . سياتي الى هنا ، مساء هذا اليوم ، او صباح غـــد .

ــ هل وقع يا بنت ؟ من يكون ؟ هل لديه نقود كثيرة بحق ؟

ــ لم اساله يا معلمة . هيـــــا يا حاج معي . اريد ان

استشـــيرك .

برز خاتم من جناح المعلمة . ابصرها . وجد نفسه ينقـاد نحوها . امسك بذراعها . ضغط عليه قليلا ، وسأل محتجا :

ــ أين كنت يا بنت كل هذه الفترة ؟

ــ الم تقل لك المعلمة . كنت اشتري هذا العقد اللؤلؤي . انظـــر !

ــ مـــاذا ؟ هاته .

ــ لا . هذا هدية . الهدية لا تباع ولا ترهن . آوه بدلتك انيقة اليوم . كلك أنيق اليوم يا ختومة .

ــ اصعدي الى غرفتك يا بنت . تعال يا خـــاتم نرى اين وصلت مسالة السيارة .

ــ واحبابنا يا عيني بالروح جاروا علينا .

تردد خاتم ثم انقاد . وضع الحاج كيان يـــــده على كتف حياة النفوس وصعد معها الى غرفتها .

الكائن الكلي في البعد الكلي

حافات الخق تتحرك . السماء الزرقاء بدورها تتحرك . اغصان التينة تتحرك . المسافات تأخذ حجمها . انها ليست ببعد واحد .

عيوننا أسيرات بعد واحد .

تنزل السماء وتنزل ، حتى تسد الخق . كل ما فيها في متناول اليد .

لكن مع الاسف ليس فيها سوى البعد .

تروح ترتفع شيئا فشيئا ، حتى تنعدم . تنعدم نهائيا . بلا سماء نكون على وضعنا الحقيقي .

غرباء وسط الفراغ والعدم .

تلتقي الابعاد كلها ، ويتشكل البعد الكلي في الزمن الكلي

وفي الكائن الكلي . ما اليوم والليلة ؟ ما الشهر والسنة ؟ ما القرن والدهر . ؟ لولا خدعة الموت لما كان لذلك معنى . الموت نفسه . لولا خدعة الرؤية الفردية ، لما كان له أي معنى . في آخر البعد ، ليس هنالك سوى الكائن الكلي . الخق يعرض ويعرض .

هكذا تبدا الرحلة . وهكذا تتواصل .

الجسد المرمري ينتصب في موضعه .

ــ لم أحب . لم أحب واحدا بعينه . كنت انتظر قدومه . أردته فوق مستوى البشر . في مستوى الحلم . ولم يكنه .

ــ ابو الطيب المتنبي لم يكن في مستوى الحلم ؟

ــ لا . ابــدا .

ــ تقولين . الم يكن ابو الطيب المتنبي شاعرا وفارسا ، ومغــامرا ؟

ــ لا . ما قلت ذلك :

ــ ماذا اذن ؟

ــ كان لئيما ، خاوي النفس . لم تكن عيناه تستقران في مكان واحد . ما كان المتنبي يقوى على التحديق في شيء ، حتى ذاته لم يكن يحدق فيها .

ــ وهل كان ينظر الى الجدران الاربعة في الآن الواحد .

ــ هو ذاك .

ــ هو ذاك اذن يا خولة . لو لم يكن نذلا ، لحــافظ على

قرمطيته . على الاقل ، ما كان يوجه لهم الشتم .

ــ وكما جئت عــدت .

انهمرت الدموع غزيرة من عينيها ، رق قلبـــــه . لانت احاسيسه . امتلأ صدره بالحسرة . امتــلأت عيناه بالدموع . اجهش . ارتفع بكاؤه . عظمت الغصة في حلقه . امتد اصبعه الى حلوى الترك . راح لسانه يلهس . اعد الفراش الحريري ، صعد اليه ، اخفى راسه تحت الوسادة وواصل النحيب . اسرعت اليه . رفعت راسه . ضمته الى صدرها . اخذت شيئا فشيئا تسري في كيــانه .

تحقق الكائن ألكلي .

عندما فتح عينيه . وجد التينة تتحول الى ديدان في حجم الثعابين . امتصت مخ الفتاة ، ثم وجنتيها ، ثم ثدييها .

تفسخت وبقي الهيكل العظمي متماسكا بلا شيء . اقبلت الديدان عليه . اعتراه الرعب . حاول الفرار . حاصرته من كل جانب . استسلم . وثبت الى مخه . سرت في شرايينه . لم يبق منه سوى الهيكل العظمي .

الدخان يتكاثف . الرحى تنصب . الفك الاعلى يدور مـــن اليسار الى اليمين . الفك السفلي يماكسه . رجلاها تثبان الى فم الرحى . قامتها تقصر . رجلاك ايضا تهربان منــك . قامتك تقصر . ركبتاها تلحقان برجليها . ركبتاك ايضا . القامتان تقصران اكثر . الايدي تثب . الاذرع ، الافخاذ . الاوراك . لا يبقى سوى الراسين . انهما يتسابقان . الآن فقط انتما في الرحى . بين

فكيها . الراسان ايضا يتحولان الى ذرات . الـــــذرات تمتزج ببعضها . صلتها ببعضها تاخذ بعـــدها . تصير كلية . الريح تنفثها . انها تنطلق نحو آخر البعد .

الكائن الكلي . كلي فعــلا .

عزرائيل يأتي . عزرائيل يضرب بعصاه . هأ ها . قهقه . انه يقع في لعبة خدعة الموت . قهقه . عصاه تضيع في البعد الكلي . قه . قه . ذراعه مليصة في الفراغ . الديدان تطاردها . هأ ها . قه . قه . عزرائيل ضحية . ضحية . قه قه .

ملأ النغليون . اضرم فيه النار . مـــزج كمية من الحشيش بالعسل . وضعها على لسانه واستغرق ، متذكرا البلغة (١) .

ـ كنت اعلم يا حمدان انني لا اجد معك اية صعوبة . انك مقتنع سلفا . لم يبق لكم ملجأ يا حمدان . تردت اوضاعكم وتردت حتى لم يعد هنالك ، وضع اسوأ تخشونه . السواد (٢) الثري الخصب ضاق بكم . تشتغلون الليل والنهار في الارض وتبيتون جياعا ؟ الماء لم يعد يغذي اطفالكم ، تنجبونهم لتسمدوا بهم ارض اسيادكم ، « انكم مضرب الامثال في الفقر » (٣) واكثر الاحـــرار فقـــرا (٤) كان الزنج اكثر حرية منكم .

ـ وهل نفعل مثلهم يا سيدي الحسين الاهوازي ؟

ـ وهل لكم طريق آخر ؟

---

١ ـ يقال ان حمدان قرمط كان يطعم انصاره حبيبات عذبـــة يصنعهـــا بنفسه تسمى البلغة على اساس الها طعام الجنة .

٢ ـ سواد الكوفة .

٣ ـ البغدادي : الفرق بين الفرق .

٤ ـ الدمشقي : الاشارة الى محاسن التجارة .

ــ وما في هؤلاء القوم من قوة ، نستطيع أن نفعل بها فعلة الزنج .

ــ انهم القوة كل القوة ، دع الهيصم وغيره من أرباب الارض يدفعونهم اليكم . مرهم بتادية خمسين ركعة في اليوم ، حتى لا يبقى لهم مجال للشغل في ارضهم . عندما يلتفون حولك ، اعطهم البلاغ الاكبر . قل لهم : (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ، ونجعلهم ائمة ، ونجعلهم الوارثين) عندما يعرف الاغنياء اهميتهم ، لا يعمدون الى ابادتهم ، كلما تمكنوا من ذلك . اخفوا الراس يا حمدان . ودعوا الجسد عاريا . ان حصانته لا تقهر .

ــ وماذا بعد ذلك ؟

ــ كل شيء ظاهر لباطن ، الا العدل ، فقرمط (١) بين الناس .

ــ وماذا بعد ذلك ؟

ــ كل شيء باطن لظاهر الا الجور . فقرمط بينهم في كل شيء . بين الرجل والرجل . بين الرجل والمراة . بين السيد والعبد .

ــ وماذا بعد ذلك ؟

املأوا الدنيا عدلا ، كما ملئت جورا . املأوا الدنيا عدلا كما ملئت جورا . انتم النور والنور أنتم . انتم الحقيقة الكبرى ، والحقيقة الكبرى انتم . قرمطوا ما وسع الاسياد وفقهاء السوء بين الناس .

اختفى الاهوازي ، خرج حمدان ، ينظم أمره .

(١) ـ تبني لتفسير نعت القرامطة تفسيرا لغويا ، فهم كذلك ، بسبب سعيهم الى التقريب بين جميع الناس وليس بسبب قصر قامة حمدان وتقارب خطوه كما هو المفهوم الساذج عند البعض .

امرهم بالصلاة خمسين ركعة في اليوم ؛ لما فعلوا ذلك ، قال « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » . راح الدعاة يبثون في الارجاء . تفسيره للآية . تقاطرت الدنانير . تهاطلت . تكدست .

ايها الجائع لك أن تأكل .

أكل الجائعون جميعا . الا أن الاتباع لم يكونوا صادقين . ماذا نفعل يا ابن عمي عبدان . ايها العالم المتفقه . لا يزال هناك من يجوع ، ولا يزال هناك من يكسب . أهذا هو العدل الذي نعد به ؟

— « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فلله خمسه » المغنم هو المكسب يا حمدان .

انتشر الشعار بسرعة في ارجاء الكوفة وسوادها ، ومس كل تابع لهم في العراق والشام . أتت المغانم . اتت بسخاء لم يتوقعه احد . القلوب تخفق بحب العدل . من وهب روحه في سبيل العدل ، لا يتردد عن دفع خمس مغنمه .

ايها الجائع لك ان تأكل .

أكل الجائع ممتنا . الا أن الجائعين يتكاثرون . الجيش قوي . مهماباذ (٦) تحتاج الى تحصينات وتحسينات ودولة العدل يجب أن تقوم .

— ماذا يا عبدان ابن عمي وصهري ؟

— عبدان قال كل ما عنده .

---

(١) ـ دار هجرة القرامطة .

ـ وانت يا زكرويه ؟

ـ ارى أن تتم القرمطة الكاملة .

ـ ماذا تعني ؟

ـ « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا » . نقيم الالفة .

ـ انا اعارض ذلك (١) .

ـ دعه يتمم يا عبدان . ماذا تعني بالضبط يا زكرويه ؟

ـ ان عبدان يخشى ان يتنازل عما عنده لفائدة الالفة .

ـ لن يرضى الناس . ماذا سيكون في مسألة المغنم والخمس اذن ؟

ـ آمرك بالسكوت يا عبدان . دع الدنداني يشرح رايه .

ـ تجمع الاموال في موضع واحد ، ويكونون فيها اسوة واحدة ، ولا يفضل احد منهم صاحبه وأخاه في ملك يملكه (٢) .

ـ نعم . نعم . هذه هى القرمطة الحقة . هذا ما كان يعنيه الاهوازي .

تدفقت الاموال . اتى الرجال بالاغنام والابقار. ومخزون محصول الارض، واتت النساء بما يملكنه من حلى ومتاع وما لديهن من مغزول ، صارت الدولة القرمطية أغنى واقوى دولة .

---

(١) ـ تصور لاسباب الخلاف بين عبدان وبين آل زكرويه ، حيث يظهر ان زكرويه كان اكثر تحررا واكثر استماتة وجذرية ،

(٢) ـ النويري : نهاية الارب ،

ـ آه يا حمدان ، الالام في بطنك . لعلك سممت . لا بد ان ابن عمي وصهري ، هو الذي سممني (١) . آه . عبدان لم يتقرمط بعد . بل ، انه ارتد عن قرمطيته . أموت . أموت . يا من هنا . آه لا أحد يجيب . اينك يا ابنة عمي .؟

مت يا حمدان قرير العين . السادة اختفوا من السواد . الالفة قائمة . لن يرجع عن دعوتك الى آخر الدهر . مصير الانسانية جمعاء القرمطة . لا صلاة ولا زكاة ، ولا وعظ ولا ارشاد يؤثر في قلوب الجياع . دينهم العدل . لقد فعلنا معهم ، ما لم يفعله الانبياء .

يا زكرويه بن مهرويه . واصل وواصل ثم واصل .

اخف الراس ، ولا تخش عن الجسد . جسد الجياع أكبر من أن يقضي عليه الاثرياء . اذا ما تمكنت منها (٢) فابدأ بعلماء السوء . اجبرهم على العيش من عرق جبينهم ، مثلما أفعل وتفعل ويفعل الاهوازي .

أين أنت يا زكرويه . لقد قتلني عبدان . حذار منه فقد انتكس . غره انه يحسن وضع الكتب . اقمها للعدل ، وللعدل وحده ، ولا يهمك لمن تنسب . ان قالوا علوية فعلوية ، وان قالوا عباسية فعباسية . اقمها عادلة ، وغض الطرف عن كل الترهات (٣) .

---

(١) ـ تصور شخصي لاختفاء حمدان والغموض الذي احيط بموته ، مع ان كل قادة القرامطة عرف مصيرهم .

(٢) ـ الخلافة .

(٣) ـ اشارة الى انفصال زكرويه عن الائمة الاسماعيليين .

آه . انني أموت . اموت .

على الساعة العاشرة من صباح الاحد ، استيقظ الحاج كيان . استبدل ثيابه وسرواله المبتلين . رتب أمور سلته وغادر المقبرة نحو المسجد .

كان الصفاء يملأ قلبه . وكان الشعور بالرضا هو مبعث ذلك الصفاء .

الصورتان ..

سرعان ما راجت الاشاعة . حياة النفوس ستتزوج . وجدت عريسا أغنى من قارون . استشارت الحاج كيان ، قبل أن تستشير حتى نفسها . قال لها الحاج كيان اسرعي قبل أن يتراجع الرجل . خيرها بين السكن في المدينة والريف ، فلم تجبه . لم تستطع ان تختار . والحاج كيان قال لها ، اسكني الاعوام الاولى في الريف . تعلمي حلب البقر والاغنام ، ومخض اللبن واستخراج الزّبدة ، وغزل الصوف وفتل الكسكسي ، وانجبي طفلا او اثنين ، ثم عودي أن شئت الى المدينة . لا . هذا كذب ، الحاج كيان لا يمكن ان يقول مثل هذا الكلام . لا يمكن أن يقول سوى انها لا تزال صغيرة ، وان حريتها هنا ، اكثر ، وأن كانت شاطرة استطاعت ان تجمع مالا وفيرا ، وجواهر ثمينة ثم تشتري عمارة ، وتشتري الزوج الذي تحبه . ما دامت الدنيا تجارة ، وصاحب القوة يسحق الضعيف ، فحاولي أن تكوني قوية ، قوية بقدر الامكان ، حتى يتسنى لك ان تسحقي بسهولة اكثر . لو كان الحاج كيان ، ينصح بالابتعاد من هنا ، لابتعد هو بالذات . في امكان الحاج كيان أن يتزوج من يشاء من بنات المحل ، ويستقل ، لكنه لم يفعل . ولن يفعل .

ـ وانت ماذا يقول لك راسك يا حياة النفوس ؟

ـ راسي مره ، يقول نعم ، ومرة يقول لا . مرة يقول بيعي نفسك لهذا المجهول ، ومرة يقول انتظري حتى تشتري الرجل الذي يروق لك .

ـ وهذا لا يروق لك ، على ما نفهم ؟

ـ أنا لا يروق لي احد . كلهم حمير يؤدون نفس الدور .

ـ وخاتم ؟

ـ الهزي هزي . والرجل رجل .

ارتفعت القهقهات . امتلأ المحل بها لحظة ، ثم عاد الى الخواء . دق الجرس . انفتح الباب . دخلت العنابية ، تتأبط ذراع خاتم . على عينيها نظارة سوداء ، وعلى شعرها منديل وردي . ترتدي جاكيتة « دان » وسروالا أحمر ، وحذاء بلونه .

ـ الم يظهر حمود الجيدوكا بعد ؟

ـ بلى . انه هنا .

ـ ليحمل الى جناحي بيرة وانيزات . أنت يا بنت ، يا حياة النفوس التحقي بي .

كان حمود منذ عاد صباح السبت ، حزينا مهموما . حاولت علجية أن تواسيه الا انه منعها بجفاء . لقد قرر نجاة ان يغير حياته . أن يخرج من هنا ، وفي نفس الوقت مع حياة النفوس . هل يهم فارق العمر بينهما ، ثلاثون سنة ؟ يهم أولا يهم . الى اين سيأويان ؟ ربنا ورحمته . ماذا سيشتغل ، من اين سيقتاتان ؟ هل لكل هذا أهمية ؟ الاهمية الوحيدة لحياة النفوس ، وللخروج بها من هنا .

بالأمس كان خاتم هو العائق . تنحى خاتم فجاة ، ولربما ايضا ، مؤقتا ، لكن ها هي الدراهم تقوم اليوم عائقا . استشير الحاج كيان حالما ياتي . لقد تأخر اليوم ، على غير عادته . لكن قبل ذلك لم لا أتحدث مع حياة النفوس وادرس معها الوضع ، حياة النفوس اما أن تفعل ما أطلبه او اقتلها . من اليوم فصاعدا ، انا هزيها . « بل على الخرب قبل أن تصبح مساجد » .

— ما معنى الكلام الذي يدور هنا يا حياة ؟

تساءلت المعلمة ، متظاهرة بالتودد ، وهي تحاول أن تقف بينها وبين خاتم . دققت في الوضع ، شعرت بتفاهة خاتم . البارحة عرض نفسه للخطر من اجل الظفر بي . واليوم يبيع نفسه للمعلمة . باباي كان شريفا . عزيز النفس ، حاولت مرة ان أعطيه بعض النقود فصفعني . انا أعشقك انت وليس نقودك . قال . لو كنت مكانها ، لاشتريت رجلا محترما .

— انك لم تجيبي المعلمة يا بنت .

رمقته بنظرة احتقار ، ثم رفعت كتفيها ، وقبل أن تلفظ باية كلمة ، نهض من السرير ، أمسك بكتفها ، وهوى عليها بصفعة .

— عندما تتحدث اليك المعلمة ، اجيبيها بسرعة . هل تفهمين .

تراجعت عن تقبيل يده . شعرت بكره شديد يصدها . هربت متقية صفعة ثانية . جمدت العنابية في مكانها . كانت جد مسرورة. فكرت حياة النفوس فيما ينبغي أن تفعله قبل ان تنتهي الى قرار :

— باي حق تضربني . يا لئيم يا لص . سأقول للحاج كيان

حالما يعود . انا لن ابقى يوما آخر في هذا المحل .

ــ خفضي صوتك يا بنت .

ــ تعالي هنا . انك في حاجة الى عقاب أقوى .

ــ لا . لا . دعني .

ارتفع صراخها حتى ملأ المحل . جاءت النساء مسرعات . اهتز قلب حمود الجيدوكا . بحث حوله ، قابلــه خنجر كبير ، حمله ، وركض .

ــ حمود . حمود ماذا تفعل ؟

صرخت علجية ، وارتمت عليه ، حاول أن يتخلص منها ، ارتمت الوهرانية بدورها ، أرتمت ثالثة ورابعة وخامسة ، وجد نفسه يتراجع . وجد يده مضطرة للتسليم في الخنجر .

ــ هذه المراة لم يبق العمل معها ممكنا . انها تحرض الهزية على ضربنا . صفعني أمامها بلا مبرر ولم تحرك ساكنا . هي التي حرضته . العجوز الشمطاء ، تشتري الهزية لضرب صانعاتها انا اخرج اليوم بالذات . سأتزوج القروي الليلة .

ــ لن أبقى انا ايضا .

قالت الوهرانية ، فأضافت علجية :

ــ وانا بدوري .

ــ وانا ، وانا .

تواصلت الاستقالات . ارتمت العنابية على حياة النفوس ، احتضنتها ، قبلتها ، دفعتها الى الداخل ، واغلقت الباب بعد ان امرت خاتم بالخروج . أجلستها على السرير . وضعت راسها على

ركبتيها ، وراحت تمسح عليها ، بينما هي غارقة في بكاء مر .

قبل اليوم ، كانت تستعذب الضرب . كانت تجد فيه لذة غريبة ، لا تجدها وهي بين أحضان أي رجل . تستفز باباي البوكسور أو خاتم بعده ، حتى تنال صفعة أو اكثر . لكن اليوم ، وقد جاءتها صفعة مجانية ، شعرت باهانة شديدة ، وباحتقار كبير . تذكرت اباها الذي سافر الى فرنسا ولم يعد ، وأخاها المشلول الرجلين الذي يعيل امها وزوجها . تذكرت الليلة التي طلبتها امها ، وامرتها بالنوم في فراشها .

ــ لماذا ؟

ــ قدر الله يا ابنتي .

ــ ما معنى هذا ؟

ــ اما أن تفعلي ، واما أن يهجرنا .

ــ هذا كلام كبير يا أمي . ليهجرنا ولتلحقه اللعنة . سيموت جوعا ان هجرنا .

ــ لا يا ابنتي ، لا أطيق . لا اريد ان يهجرني رجل ثان بعد ان هجرني ابوك .

ــ يا أمي فكري فيما تقولين ؟

ــ لقد فكرت جيدا يا ابنتي ، نامي والله ولي كل الامور . هيا هيا ، ادخلي الى الفراش قبل ان يأتي .

اغوتني .

دخلت الفراش . كانت تبكي ، كنت ارتجف . انفتح الباب الخارجي للكوخ ، داعبت أمي ثديي ، وغادرتني . اطفأت القنديل .

جاء راكضا . انتزع ثيابه . سعل . امتدت يداه الـــى خصري. كانتا باردتين . شعرت بالرعب . صرخت من أعماقي ، وقفزت .

حاول أن يركض خلفي في الظلمة . دفعته في صدره . تراجع ثم تقدم ، رفعت رجلي ، وركلته بين فخذيه ، صرخ وسقط ، جاءت أمي تجـــري .

غادرتهم .

طفت هنا وهناك . القي القبض علي مرة ، أولى ، فثانية ، فثالثة . بعدها أضطرتني الشرطة ، الى الامتهان أو الى الذهاب الى السجن . تضيت شهرين ، بالجلفة ، ثم جئت . أتى بي باباي البوكسور مسكين . وراح يحبني . تراه أين يكون ؟

ــ اسمعي يا بنتي . الكلام الذي تقولينه خطير . انا احبك اكثر من جميع الصانعات اللائي اشتغلن ويشتغلن معي . لا احبك لانك اجملهن . صحيح انك تحبين اكثر لانك جميلة اكثر ، لكن احبك كابنتي . احبك كنفسي . اسألي الحاج كيان ، وسيقول لك ، سيقول لك انك نسخة طبق الاصل مني ، عندما كنت في مثل سنك.

ــ قال لي ذلك .

قالت شاهقة ، والغصة تمزق الحروف في حلقها ، شعرت بقلبها يلين . شعرت العنابية ايضا أن قلبها يلين أكثر فأكثر ، تذكرت يوم حاولت أن تخنق نفسها بحبل صنعته من قميصها ، عندما انتزعوا عشيقها منها ، ليرسلوا به الى كيان . لو لم يتقطع

الحبل لمت . آلمني كثيرا يومها ، ان لا اموت .

اجلستها قبالتها . راحتْ تتأملها . امتدت يداها الى عنقها ، انتزعت عقدا ثمينا أهداه لها في تونس قاضي القضاة ، وضعته في عنق حياة النفوس . قبلتها . استخرجت من حقيبة يدها ، مشطا ، راحت تسرح لها شعرها .

ــ انا لم انتزعه منك . كل ما هنالك انه ارتمى في احضاني ، فاحتضنته . أنا يا ابنتي اجتزت الاربعين ، في سن امك ، او اكبر . هذه فرصتي الاخيرة . لا استطيع ان اتردد في احتضانه ابدا . هل تتصورين انه يلهس ثديي مائة مرة في اليوم . هل كان يفعل ذلك معك انت ؟

اشارت حياة النفوس براسها أن لا .

ــ ارايت ان ارتماءه في أحضاني له معنى خاصٌ . انني عمياء يا بنتي . ساعطيه كل نقودي ، كل ما أملك ، سازوجه بك ان طلب . سأتنازل له عن المحل ان شاء . أنني عمياء . أعلم انني اسير نحو الهاوية ، ولكنني مع ذلك لا اريد أن افتح عيني ، لاتجنبها . الهزي لا يحب من امثالك يا ابنتي ، لانه شخص مجنون، ينحدر الى الهاوية . ان فتى ، مثل هذا لا يحب الا من عجوز ، تودع الحياة مثلي . الا من جرة ملأى بالقطران ، تنحدر من قمة جبل ، ومعرضة مثلي ، في كل لحظة للارتطام بصخرة . هيا قبليني ، يا عروسة . احتضنيني جيدا .

احتضنتها حياة النفوس . قبلتها في عنقها ، في خدها ، ثم في فمها . كانت مشاعر المودة ، تسيطر على قلبها .

ــ سامحيني يا بنتي . سامحينا . انه أهوج .

ــ سماح الدنيا والآخرة .

هذا المقد هدية مني اليك . احتفظي به مهما كانت الظروف. هيا يا عروسة عودي الى حجرتك ، لو كان لي ولد ، لما ترددت ابدا في اختطافك عروسا له . كم يسرني أن اكون حماتك ، او امك .

ــ سامحيني يا لا لا .

قالت البنت ، وخرجت الى البهو . يملأ الرضى قلبها .

المعارضة الحمقاء

كانت الساعة العاشرة والنصف عندما دخل الحاج كيلان ، ليفاجأ بالمنظر .

خاتم ملقى على الارض ، موثق اليدين والرجلين بمناديل ، والبنات ينهلن عليه ضربا .

بدأت المعركة ، عندما غادر جناح العنابية ، وفوجيء بحمود الجيدوكا ، يتخبط بين أيديهن صارخا :

ــ أعود الى الاشغال الشاقة من اجله . اللص الكلب ، يتهزز على الولايا . اشرب دمه ، وآكل كبدته ، لن يسلم مني اليوم . يا انا ، يا هو . اذا كان احتقر باباي البوكسور ، فلن يحتقرني انا .

ــ انه يعنيني على ما يظهر . هذا الهرم يستهدفني هذه المدة . دعنه ، يجرب حظه ، لآخر مرة في حياته ، قبل ان يرضى بموقعه .

اسرعت علجية ، الى غرفتها ، أخفت الخنجر تحت الفراش وعادت مسرعة .

ــ الآن اطلقنه . لنر ما هو قادر عليه .

قالت ، ثم راحت تفك الحصار عنه . خلصته ، وخلت بينه وبين خاتم ، وفتحت ذراعيها ، كأنما تدعوهما الى المبارزة .

ــ اسمع يا العجل . هات خنجرك أيضا .

ــ وما حاجتي الى الخنجر ، عندما يكون الامر متعلقا ببقرة هرمة مثل هذه .

ــ تقول بقــرة .

ــ اقولها واعيدها . تعال هنا .

قذف حمود الجيدوكا سترته بعيدا ، وتوثب للانقضاض على خصمه . كان يتربص أن يتمكن منه ، بضربة من ضربات المصارعة اليابانية ، فيطرحه أرضا ، ثم يفعل به ما يشاء . راح يبذل قصارى جهده للاحتفاظ ببرودة أعصابه .

فطن خاتم الى خطته . فأراد ان يتحداه . أعطيه فرصـــة القائي . عندما لا يتمكن ، اسخر منه واستفزه ، فيركب راسه . سأخصيه خصيا اليوم .

اختطف حمود ذراعه ، تذكر شبابه ، أيام كان يتحزم بحزام أصفر ، ويسافر من عاصمة لأخرى ؛ الى ان تعرف عليها فـــى المانيا . عشقها . وقع صريع حبها . طلب منها ان تغادر الماخور وتتبعه . قالت له انها هكذا اكثر حرية . مـــن كلمة لأخرى . استفزته . امتدت يده اليها . هوت على الدرجة ، فج راسها . حملوها الى المستشفى . لم تعد . كلفته عشرين سنة اشغالا شاقـــة .

سحب . قهقه خاتم .

شعر بالغيظ . وقفت حياة النفوس في خياله عملاقة . رفعه الى فوق . انحنى . تجاوبت الارض مع جثته .

ــ اليه يا حمود .

ــ هتكه يا حمود .

ــ اياك ان تقتله يا حمود .

ــ آه يا اخي ، صدق المثل : القدر القديمة وحدها في بنة طعامها . عود الجيل الجديد ، لا يصمد للمواصف .

ــ ايه . رجال الزمن الماضي ، طينهم وحدها .

حمود الجيدوكا ، لولا امتلاء قلبه بالحياة وهمومها ، لكان هزي الهزية ، في هذا البلد . لكن ، النفس الشبمانة شبمانة . .

تمكن خاتم من التناهض بأسرع مما كان حمود يتوقع . صرخ كالاسد الجريح . هجم عليه وكاله ضربة عنيفة ، انحنى حمود الجيدوكا. مرت الضربة فوق راسه. شعر بالخطر الماحق. تمنى لو أن علجية لم تنزع منه خنجره . فكر في الهروب . فكر في التراجع . بانت له حياة النفوس . بان له شبابه . تراءى له شاب أسمر ، في بدلة بيضاء رجراجة ، وبحزام أصفر . كان الامريكيون والفرنسيون والانكليز ينحنون لك . كنت تصمد أمام اليابانيين ، ولا تنحني بالسهولة . جولة اخرى ويسقط العجل .

حاول التقهقر . تشجع خاتم . أسرع اليه . انحنى . تمكن من ذراعه . تذف به الى الامام . التفت ليرى اثر الوقعة . كان خاتم واقفا والبسمة الساخرة على محياه . عيناه تنظران الى الجدران الاربعة ، ويداه ممدودتان تريدان الانقضاض .

ـ علجية الخائنة لو لم تنتزع مني الخنجر لقضيت عليه . كيان ، ولا الانهزام أمام هذا المجل .

التصميم في القلب لا يزال قويا . حياة النفوس لا تزال ماثلة أمام عينيه .

ـ لا بد أن ينتصر أحدنا . اذا ما قضيت عليه ، عدت الى التهزز .

حاول أن يوجه ضربة قوية الى عنق خصمه . لكنه تمكن من صدها . أبعد عنقه ، ووجه لكمة الى ذراعه . آلمته عضلته ، واعتراها الارتخاء .

ـ لا تزال اليسرى قوية . اذا ما انحنى ، أو اتخذ وضعا جانبيا ، حضر أجله . الضربة الممنوعة في المصارعة اليابانية . أوجهها له . ها هو يتقدم . ليتقدم أكثر . لأهرب الى اليمين . حينما يميل أهوي عليه .

ـ هيا يا حمود انك حتى الآن منتصر .

ـ انتقم لحياة النفوس يا حمود .

ـ وللبوكسور أيضا .

ـ اياك أن تنهزم . ستكون عبدا له ان انهزمت .

ـ سيقتلك .

ـ من يغلب ؟

ـ حمـــود .

ـ لا . خاتـم .

ـ هل تراهنين ؟

ـ اراهن .

ـ بكـم ؟

ـ بما تشـائين .

ـ عشرون وصل اتصـال بعشرين .

ـ اقبـــل .

ـ اقبـــل .

ـ هيا يا حمود .

ـ هيا يا خاتم .

تمكن خاتم من توجيه لكمة أخرى الى اليد اليسرى . اعترى حمود الجيدوكا الوهن في ذراعيه . شعر بدقات قلبه تتضاعف . تمنى لو انه احتسى كأس نبيذ احمر . لو انه ملقى في السرير ! لو أن علجية المسكينة التي تحبه ، تضمه الى صدرها . لو انه لا يزال في السجن ، متخلصا من كل مسؤولية . لو انــه لم يعرف الالمانية ، ولم يعشقها ، ولم يصفعها ولم يقتلها .

تراءت له حياة النفوس . تاق الى التحرر من وضعه في الماخور . هات بيرة . هات انيزات . هات واحدة . هات ستة . قرر أن يصمد .

هذا المجل لا يجوز التراجع أمامه .

مد خاتم يديه . تمكن من القبض على يدي حمود الجيدوكا . كان يعلم أن قوته تكمن هناك ، فعمل اساسا على اضعافها وشلها .

انحنى الاثنان يتقيان ركلات بعضهما . التقت رأساهما . فكر

خاتم انه في امكانه ، ان يوجه ضربة راس قوية الى خصمه فيلقيه ارضا ، ثم قرر أن لا يفعل . لم يحن أوان ذلك بعد . البقرة الهرمة لا تخيف ، فلتتعذب قبل أن تخر .

تساءل حمود الجيدوكا عما اذا كانت يداه ستظلان مشلولتين وقتا أطول ، وعما اذا كان راسه ، سيتحمل صدمة قوية مع راس هذا المعجل .

ما كان كان . وما سيكون يكون .

ــ خاتم يغلب . قلت لك .

ــ لا . حمود . حمود الجيدوكا لا يقهر .

ــ الرهان لا يزال ساريا .

ــ لا يزال . عشرون بعشرين . لا تراجع .

ــ لا تراجع .

اضطر حمود الجيدوكا الى السماح لرجليه بتلمس خطوتين الى الخلف ، والى جسده بالتقهقر ، مع تصميمه القوي ، على أن يظل ثابتا براسه ، حتى ، يشعر العجل بالوهن وينحني .

ــ أيتها البقرة الهرمة . ماذا سأفعل بك الآن . تعلم انك في قبضتي . ستتراجع وتتراجع حتى لا يبقى لك مجال للتراجع . فيوسعي ان أوجه لكمتين قويتين أخريين الى عضلات ذراعيك فتيأس من كل حركة . تعرف انك انتهيت . هرمت وحان أوان استسلامك ، ومع ذلك لا تريد ان تسلم . انك معاند غبي . لم تعلمك عشرون سنة من الاشغال الشاقة اي درس . سأبطحك . انزع سروالك . ابصق على مؤخرتك : وارسم في الييتيك بظفري أو بنابي ، خطوطا متعامدة . لقد حان أوان انبطاحك ،

وسترى ما ينتظرك . اعلن استسلامك أعف عنك .

فطنت علجية الى ان وضع حمود الجيدوكا يتردى شيئا فشيئا وبسرعة كبيرة . عز عليها أن تراه في منظر باباي البوكسور. ومع أن كفاحه ليس من اجلها ، بل ، من أجل نزوة طائشة ، سكنت راسه فجاة ، فان من واجبها أن تنقذه . انها ملأى بحبه ، انها تعلم أنها آخر ملجأ ومأوى له . لتنقذ كرامته ، قبل أن يمرغه المجـل .

اشارت الى الوهرانية ، والى باقي النساء . ارتمت على رجليه . انبطحت ارضا ، وتمسكت بكلتا رجليه ، توقف زحفه . امتدت ايد كثيرة تعينها . سقط خاتم ارضا ، وقف حمود الجيدوكا يلهث . اسرعن الى شد وثاقه بالمناديل .

ــ ماذا تفعلن يا بنات ؟

قال الحاج كيان وهو داخل ثم اشار الى الوهرانية وحياة النفوس بفك وثاق الرجل . واعطى امرا باصبعه الى التفرق .

عادت النساء الي المناضد . عاد حمود الجيدوكا الى المشرب يتفصد عرقا . نهض خاتم ضاحكا .

الـــودر

ما ان جلس الحاج كيان وسط البهو ، حتى تحلقت حولـــه النساء ، يحيينه مختلف التحايا . كانت الوهرانية ، أول من جلس الى جانبه ، ثم قابلتها حياة النفوس ، على الجانب الآخر - محمرة العينين ، تنتزع البسمات من فمها انتزاعا ، في حين جلست علجية خلفه مسندة كرسيها الى كرسيه .

ــ كيف حالكن يا بناتي ؟ أنتن جميعا هنا ؟

ــ جميعا يا بابا الحاج .

قالت علجيٌة ، وهي تتابع حمود الجيدوكا . بدا لها ان جسمه الذي تقوس اثر المعركة التي انقذته منها ، قد أستقـــام ، وان وجهه الذي كان الذبول قد اعتراه ؛ استعاد حيويته . لقد لمعت فكرة جهنمية في راسه ولا شك . هذا الشعور بالرضى الـــذي يعتريه فجاة دليل على ذلك . مسكين حمود الجيدوكا ، الى أين يذهب اذا ما وجد نفسه خارج المحل مطرودا ؟ لا يتصدى لخاتم فحسب ، وانما يجرح عاطفة المعلمة . لقد وقفت بنفسها في وجهه وصرعته بالعصا دفاعا عن عشيقها ، ولم يفهم .

سيقتلونك يا حمودي العزيز ، أو يطردونك . وسابقى وحيدة .

ــ انا الوحدانية . انا قليلة الوالي .

رفعت علجية عقيرتها . ضحكت النساء . تبسم الحاج كيان . وقف خاتم والعنابية على رؤوسهم ، كانت العنابية تتأبط ذراع عشيقها في لهفة ، في حين علا العبوس ملامحها . فهمت النساء ، انها ستنفجر ، للفعلة التي أتينها . راح خاتم يبتسم ، وهو يتأمل وضع الحاج كيان : هذا الرجل سلطان . هارون الرشيد ، دقينوس ، علق خاتم ، ثم استرق نظرة خاطفة الى حمود الجيدوكا .

ــ من هي صاحبة الامر اليوم يا الحاج ؟

ــ المرة السابقة سأل عن العنابية وعن حياة النفوس .

قالت علجية ترد على سؤال احداهن . همس خاتم في أذن المعلمة يسأل عن سر العملية ، أفهمته أن هذه عادة قديمة عند الحاج كيان . يحضر معه كل يوم أثنين بعد تغيب السبت والاحد الى حيث لا يدري احد ، رزمة حلوى ، يختار واحدة من البنات ، يعلن انها صاحبة الامر . يعطيها اياها لتوزعها ، وتقوم بشؤونه يومها وليلتها . تغذيه وتعشيه ، وتبيته في غرفتها . انهن جميعا يتمنين ، كل من جانبها ، ان يقع عليها الاختيار ، لتصبح تتبجح في الغد ، بأن الحاج كيان ، أباح لها ببعض اسراره ، وانها ستحتفظ لنفسها بهذه الاسرار .

ــ تراه من سيختار اليوم ؟

تساءل خاتم بصوت عال ، التفتت اليه النساء متفاجئات .

ايهمه حقا ، أن يدخل جوهن ، وينسجم معه ، أم هو مجـــرد تظاهر ؟ هذا هزني من نوع خاص !

ــ الحاج كيان يختار حسب مزاجه .

قالت العنابية، وهي تخشى ان يقع اختيار الحاج كيان عليها. هل تقبل ان تكرس يومها له ، أم تخرق العادة فترفض . لا . الحاج كيان طيب، ولن يفعلها . لن يحاول أن يبعدني عنه ابدا ، اذا ما فعل ذلك ، فان هذا موقف منه . عدائي لا محالة . ثم ما سيكـــون موقف ختومه حبيبي .

ــ هيا نخرج .

قالت هامسة ، فلم يابه لها . كان بصره عالقا بالحاج كيان ، وهو يجيل نظره في النساء ، كانما يتعرف عليهن للمرة الاولى .

اضطربت العنابية ، عندما التقت اعينهما . ابتسم الحاج كيان . دق قلب العنابية ، تمنت لو طاوعها الولد وخرجا .

اذا ما وقع علي اختياره ، اكون اليوم اسعد واحدة ، اضع راسي في صدره ، وابكي حتى اموت . فكرت حياة النفوس ، وفكرت الوهرانية ان من واجبه أن يختارها . الجميع هنا يعلم انني متعلقة به ، وانه بدوره يحبني ، يعطف علي اكثر من الجميع على الاقل . اذا لم يخترني غضبت عليه الى الابد .

ــ « احبابنا يا عيني رحنا وراحوا عنا . ولا حد منا اتهنا . عيني يا عينيي » .

ــ هيا يا الحاج كيان اختر . لقد أطلت التردد .

ــ هاك الرزمة يا خاتم ووزع الحلوى على البنات .

ـ ما هذا ؟

ـ الحاج كيان يتوج خاتم .

ـ انه يضع ثقته فيه .

تردد خاتم ثم مد يده وتناول رزمة الحلوى . اهتزت أعطاف العنابية . وثبت اليه وقبلته .

ـ شهم . شهم . حاج كيان ونصف . ولد جامع الزيتونة ونصف . انت ابونا كلنا . يا بو حجة .

راح خاتم يوزع الحلوى بحماسة . نسيت النساء بسرعة حقدهن ، ورحن يتناولن من يده ويستزدن . حتى حياة النفوس ، طلبت اكثر من مرة الاستزادة . فتحت العنابية حبة ووضعتها في فم خاتم . نهض الحاج كيان واشار الى الوهرانية :

ـ هيا يا وهرانية .

وثبت . هتفت العنابية :

ـ هاك قسمتك يا باي تونس . وانت يا حمود الجيدوكا . افتح قارورة انيزات وصب الى البنات .

زغردت . تردد صدى الزغرودة في أرجاء المحل . رفعت ملجية صوتها :

ـ « طهر يا المطهر صحة لا يديك . لا تجرح وليدي لا نغضب عليك » .

زغردت الوهرانية ، زغردت حياة النفوس . رن جرس الباب . هتفت العنابية :

ـ لا تفتح يا باي تونس . لا تفتح وربنا ورحمته ، قطنا

وشحمته .

قهقهت . قهقه الجميع . نهضت علجيـــة . تناولت ايدي الوهرانية وحياة النفوس ، وراحت تضرب الارض باحدى رجليها ، وتـــزار .

ــ « آرواح ارواح وكي نشوفك نرتاح ويتغير حالي » .

تبعتها المرأتان . تأبطت كلتاهما أحد ذراعيها ، ونسقت حركة ركبتها معها ، وراحت تضرب الارض وتزار من اعماقها .

راحت العنابية بدورها تستحث باقي النساء ، ساحبـــة اياهن من أذرعهن . شرعت العدوى تسري بسرعة . تقابل الصفان . صف علجية والوهرانية وحياة النفوس ، وصف العنابية ، وباقي النساء . راحت آلارض تهتز تحت ضربات الارجل القويـــة . راحت الغرف والطوابق ، والجدران تستوعب الحياة وتتجـاوب معهـــا .

اختطف خاتم ذراع الحاج كيان . ضرب الرجلان بأرجلهما . حاولت النساء تطويقهما وضمهما الى أحد الصفين ، ظلا يحتفظان بكيانهمـــا .

كانت يد خاتم تشد بقوة على ذراع الحاج كيان . شعـــر بذلك . قال لنفسه انه كان يقدر هذا ، وأن الوقوف ضد التيار جنون . حمدان قرمط ، لم يفعل ، سوى أن حرر التيار الذي كان محبوسا ، وانساق معه .

اسرع باي تونس واتخذ مكانه في صف الرجال ، اختار أن يتناول ذراع الحاج كيان بدل ذراع خاتم .

تردد حمود الجيدوكا كثيرا ، حاول أن يرتـــب القوارير .

حاول أن يرتب الكؤوس . حاول أن ينشغل بامر ما . قابلته حياة النفوس بطلعتها البهية ، كانت مثل البرق الوامض ، الذي ما أن تتوق العين للتحديق فيه حتى يختفي . كانت مثل الشمس ما أن يحدق فيها عاشق ، حتى ينبهر .

تردد وتردد ، ثم انساق ، زار من خلف المشرب بعد أن ضرب رجله بقوة على الارض . وجاء يتقدم راقصا نحو الصفوف الثلاثة . اعترض سبيله اولا ، صف علجية .

قرر أن حياة النفوس ، ليست من جنس بني آدم ، وانما هي ملاك ، خلق في السماء السابعة ، ونزل الى الارض ليضفي البهجة على النفوس .

عندما استدار الصف ، كانت العنابية ومن معها ، يحلن بينه وبين صف الرجال . اغمض عينيه وقرر أن يكون صفا رابعا. رفع صوته اقصى ما يمكن حتى يعد له مكانا في الفضاء المليء . اسلم ذراعه ليد قوية ، تشبث به . دخل في النسق العام .

— ارواح ارواح .

— وكي نشوفك نرتاح .

— ويتغير حالي آه .

من يطلب الحاج كيان ؟ من تطلب العنابية ؟ من تطلب علجية ؟ من يطلب خاتم ؟ والوهرانية ؟ وحياة النفوس ؟

هل يطلب كل عاشق وعاشقة ، المعشوق؟ هل يكفي ذلك؟ ان العاشق والمعشوق متقابلان . انهما هنا ، لكن القلوب خاوية

والصدور تهتف طالبة الراحة .

كان الحاج كيان ، يلمح بين عينيه ، تارة ابا الطيب المتنبي ، وتارة حمدان قرمط ، وتارة زكرويه الدنداني ، وكانت العنابية ، ترى غيمة تمطر اطفالا ظامئين ، وكانت حياة النفوس ، ترى صدرا في طول الارض وعرضها ، اما الوهرانية ، فليس بين عينيهـا المغمضتين سوى بسمة الحاج كيان الوتورة . وكانت علجية ، ترى نبع ماء بين نخلتين منفردتين في صحراء لا اول ولا آخر لها . حمود الجيدوكا ، كان يرى حزاما أصفر ، يتلولب في الافق . باي تونس واحوازها ، يرى عنزة في مراح ، امام خيمة شعر ، وسط مرج أخضر .

الوحيد الذي لم يكن يرى شيئا ، ولم يكن يهتف أو يتوق لشيء ، هو خاتم . كانت غشاوة حمراء ، تحجب عن بصره كل المرئيات . حين يتقدم يشعر بنفسه يتقدم ، ويعتز بالفوران ، الذي يدفعه الى الامام ، وحين يتراجع ، يشعر بالنشوة ، ويخيل اليه ان ذلك اهتزاز وانه اولا وآخرا دليل على انه حي يتصرف في كل حركة من حركاته .

— ارواح ارواح .

— وكي نشوفك نرتاح .

— ويتغير حالي آه .

لم يات شيء . لم يات احد . الابواب الستة منغلقة . الصوت بلغ عنان السماء ، ولكن لا شيء اتى . مع ذلك شعر الجميع ، آخر الامر ، ان شيئا لا مرئيا ، في قوة الشمس ، أتى ، اقتحـم اعماقه واستقر . ملأ قلبه بالرضى والاطمئنان والرقة ، واستقر .

خفتت الاصوات . سحب الحاج كيان الوهرانية من يدهـا وصعد بها الى غرفتها . ترددت حياة النفوس ، احتارت ايـن تذهب ، ثم لحقتهما . حمل خاتم بين ذراعيه العنابية ، وراح يعد لسانه للهس ثديها .

عرس بغل ، عرس بغل مهما كانت الأمور

رن جرس الباب . فتح باي تونس . امتدت له يد بورقة زرقاء وطلبت منه أن يوقع في كراس . راح يركض الى العنابية . فتحت الورقة الملفوفة ، حاولت أن تتعرف على ما فيها ، لم تتبين سوى حروف متراقصة .

ــ هذا تلغراف . هاك اقرأه يا خاتم .

ــ نسيت نظاراتي في المكتب . اعذريني لا أستطيع قراءته .

ــ لعله من الضرائب .

ــ وهل من العادة أن توجه الضرائب تلغرافات ؟

ــ من يدري . الوقت يجري بسرعة ، والقوانين تتغير بسرعة اكثر . انني اطمع أن أصفي حسابي معها بعد العرس ان شاء الله .

ــ لقد قلت لي ذلك ، وانا موافق .

ــ يكون متعلقا بالعرس حينئذ .

ـ ما في ذلك شك .

ـ يا حاج كيان . يا الحاج . هو نقط ، او علجية ، يتمكن من فك رموزه ، يا حاج كيان .

ـ قلت لك ان بامكان النساء ، أن يتبرعن بريع سبت واحد .

ـ لم افاتحهن في الموضوع بعد .

ـ ليس ذلك من مهامك .

ـ ومن مهام من اذن ؟

ـ الحاج . الحاج كيان . لقد بدات افهم هذا الرجل . انه يبسط جناحه عليك بالفعل .

ـ ماذا يعني كلامك هذا يا ختومة ؟

ـ اعني ان الرجل لم يحج الى كيان في سبيل الله .

ـ لقد فعل ذلك من اجلي .

ـ انه يحبك فعلا .

ـ وكيف عرفت ذلك .

ـ حين وقع اختياره علي ، انما كان يعني انه اختارك أنت .

ـ هذا وهم لا غير . الحاج كيان ، اراد ان يصلح ما تصدع ، وأن يجبر الكسر . لقد وجد الجو متوترا بسببك ، فأراد أن يبعث فيه الصفاء . انني أكثر معرفة له منك انت يا ختومة .

رن الجرس . امتدت يد بورقة زرقاء أخرى . وقع باي تونس . رن الجرس مرة أخرى . انفتح الباب . انغلق . رن الجرس ، وقع باي تونس . ركض . عاد . رن الجرس . ركض

عاد . تكدست الاوراق الزرقاء .

ــ الجلفة والأغواط ، وسطيف وعنابة . ميله ومليانة ، وبسكرة والبليدة ، قسنطينة وتلمسان . وهران والاصنام ، كلها تلبي الدعوة الى الحضور لعرس بغل . الجلفة تقول أن معهـا أحسن الراقصات في القطر . عين البيضاء تقول أن معها اشهر فرقة لغناء الصراوي (١) قسنطينة تؤكد ان في صحبتها سبعة قياد واربعة هزيين .

ــ زد . زد . اقرأ واعد القراءة . قلبي يرتاح أكثر . ما خاب من كانت أموره بين يديك يا الحاج كيان .

ــ وهل كل شيء معد ؟

ــ ماذا تريد . الطلبات للبضاعة تدمت . غدا يبدأ التوزيع . قررت أن اطعم ايضا . لا يليق أن ترجع المعلمات والقياد والهزيون، دون أن يقدم للجميع الطعام . يجب أن يفهموا ، أن العرس ، وان كان عرس بغل ، ليس وراءه افلاس أو احتياج كبير الى النقود . سيكون العرس من أجل ختومة ، ومن أجلي يا حاج كيان . وستسهر أنت وختومة ، والاحمق حمود الجيدوكا على الامن . ستستقون الهزيين الذين ياتون ، وتذكرونهم بالمثل والقيم . وتطلبون وضع حد لنزق من يركب راسه . سترقص كل جميلة . وستخـرج الالاف للرشق(٢)وسيعلن المغني، اثر كل كلمة «بات يا خويا بات»(٣) (ويرفع ورقة العشرة آلاف الى فوق معلنا انها ميتة ، من عنـد فلان وعلى راس فلانة وفلانة . والبلد الفلاني . في عرس البغل ،

---

(١) ـ يقصد به اللحن العالي ولعله منسوب الى الارتفاع .

(٢) ـ وضع ورقة نقدية في حزام او في فم الراقصة ، هدية لها واعجابا بها .

(٣) ـ أمر التوقف للقصب ، والايذان بأن هناك من يعلن عن وجوده بالنقود،

وعندما تسلم الامور ، تتوفر اموال تحل جميع مشاكل المعلمة .

ـ اليوم الاثنين . وفي مثل هذا اليوم من الاسبوع القادم يكون العرس .

قال الحاج كيان . فاضافت العنابية :

ـ قل انه يبتدىء يوم السبت ان لم يكن الجمعة .

ـ يوم السبت لا أكون هنا .

ـ مشكل كبير مع سبتك واحدك هذا . في تونس يقولون ، يوم احتجتك يا وجهي خبشتك القطط .

ـ سارتب الامور ، حتى تجري وكما لو انني حاضر . اذا حدث ما لم يكن في الحسبان ، فلا لوم على احد . لا علي ، ولا عليك ، ولا على خاتم ايضا .

ـ انك رجل ونصف يا حاج .

قال خاتم . تأمله الحاج كيان مليا ، واجابه :

ـ انني احاول ان اساعدها بقدر الامكان . وهذا كل ما في الامـــر .

أشار بيده الى العنابية . ابتسمت هذه . رفعت راسها متبجحة ، وكأنما تريد أن تقول له : ايها الولد المسكين . الدرة المنفردة ، وان كان يعشقها الجميع ، فانها من اكتشاف واحد لا غـــير .

ـ ان كنت تفكر في الاستمرار هزيا هـــا هنا ، فجند أيام العرس ، أقصى ما يمكن من الاتباع .

ـ ماذا تعني بذلك ؟

ــ اعني أن عرس بغل ، عرس بغل ، مهما كانت الامور ، ومن أول لحظة الى آخرها .

ــ انا حديث عهد بالتهزز يا حاج .

ــ أعلم ذلك .

ــ ستتجمع أموال كبيرة هنا ، وذلك لا يخفى ، على بال الكثيرين . وهناك من يتصيد هذه المناسبات ، بلهفة .

ــ ما هي نصائحك ؟

ــ دعوا كل ذي قوة يتأكد من قوته . لا تردوا من تمتد يده الى « تلمونة » (١) المغني ، أو حزام الراقصة ، ان يأخذ ما طاب له من النقود . لا تستفزوا أحدا ، ولا تشعروا قويا بأنكم اقوى منه .

ــ لقد عشت كل ما تقوله ، يا الحاج . انك دهقان بحق . افهم جيدا يا ختومة ، ما يقوله الحاج كيان ، انه أكثر تجربة مني ومنك . قرأ في جامع الزيتونة ، وعاش بأكبر ماخور في تونس ، وخالط كبار المجربين بكيان . انه أعظم هزي بالحكمة يا ختومة . استفد منه ، واضف الى قوة بدنك ، قوة عقلك ومكرك .

---

(١) ــ قلنسوة البرنس .

... والدنيا لمن غلب

دق باب جناح العنابية ، اذنت للطارق بالدخول . لم يأبهوا بالداخل . واصلوا حديثهم الذي اثارته البرقيات المتناثرة أمامهم .

ــ ما دمتم متجمعين ، كلكم ، اود أن امضي لكم بحديث هام :

كان حمود الجيدوكا يقف متظاهراً بالانتفاخ والعجرفة . حمود هذا ، بعد العرس مباشرة ، يطير من هنا . يذهب الى الجحيم .

قالت العنابية في سرها ، وهي تقطـب جبينها ، في حين ابتسم الحاج كيان . وراح خاتم يتكهن بالسر الذي سيعلن عنه ، هذا المفتر ..

ــ هات . خلصنا يا سيدي عبد القادر .

ــ أريد أن اتزوج .

ــ « بعدما شاب ، علقوا له الكتاب » . على كل حال ربي يسهـل .

قالت العنابية ، ثم أطرقت تفكر . لماذا جاء يخبرني ، بهذه

الهيئة ؟ لماذا يحاول الاصطدام بختومة ، دونما اي مبرر واضح . يريد أن يتزوج ، يتزوج ولماذا ازعاج الناس . لماذا يخبرني انا ؟ هل يريد أن يطلب اعانة ؟ انا في حاجة ، لكن اذا مرت الامور كلها بسلام ، أعطيه ثمانين ألفا . اخسر وفارق كما يقال .

لعله يفكر في الزواج بها . بالعنابية . الكلب ابن الكلب . لهذا السبب اذن يتحامل علي ويحاول ردعي . لقد حانت فرصة وضعه في مركزه . يلعق بطيبة خاطره ، أقدام كل من بالماخور . فكر خاتم ، ثم وثب الى حيث يقف . وراح يفحصه من أسفل الى اعلـــى .

ــ ختومة . الرجل لم يقل عيبا .

ــ بل قال شرا .

ظل الحاج كيان ، يحاول تركيز فكره . حمود الجيدوكـــا سقط نهائيا . يريد أن يتهزز بالذل . نسي مبدا الهزي الـــذي صاغه المتنبي منذ قرون ، الموت اعذر . الصبر اجمل . البر اوسع. الدنيا لمن غلب . جذرته ، من مغبة التمادي في هذا الضرب مـــن البله ، لكن الرجل سقط .

طيب ، وماذا يمنعك من الزواج ؟ هل تخطبني في احـــدى العذارى اللائي يربضن ببيتي ؟ في اية ادارة تشتغل أيها العريس. ما هي ماهيتك . هل تقطن مع امك او مستقلا ؟ ابنتي لا تتزوج الا ضابطا ، او ابن ضابط . او مقاولا .

ــ لعله يخطب يدك انت ؟

قال خاتم مهددا . فرحت العنابية . انه يغار علي . سأطلب من الحاج كيان ، ان يكتب لي حجاب محبة ، يعمي بصره عن كل

امراة غيري . لا شك أن الحاج كيان ، تعلم في جامع الزيتونة ، كيف يسحر العالم .

ــ انا اقصد البنت حياة النفوس .

ــ ها ها .

قهقهت العنابية ، وتبعها خاتم ، وهو يشعر باهانة كبيرة توجه اليه ، بالأمس حياة النفوس أجمل واحدة في مواخير الجزائر ، عشيقة لي ، لي أنا ، قاهر الهزيين ، الذي رسمت صورتها باربعين الف فرنك على كتفي ، واليوم ، يعلن هذا الحمار الهرم عن رغبته في الزواج منها .

ــ وما موقفها هي ؟

تساءل الحاج كيان . فرفع حمود كتفيه ، يعلن أن لا موقف لها . اطمأن الحاج كيان ، وغمز العنابية يدعوها الى عدم الاكتراث.

تساءلت المراة ، عما اذا كان هناك من هو أحمق منه ، فتذكرت أن خاتم بالنسبة اليها ، كحياة النفوس بالنسبة لحمود .

ابتسمت : المشقة صعبة .

ــ اعتقد يا حمود الجيدوكا أن التفكير في مثل هذه الامور ، يكون بعد العرس أسلم .

أضاف الحاج كيان ، في حين عاد خاتم الى مكانه بجانب العنابية ، محتارا فيما سيفعله ، أو يقوله . هذا الكلب لا يفتا يعترض سبيلي . بعد العرس ، انهي عجالته . قبل العرس . يجب ان افعل ذلك ، قبل العرس . الآن بالذات . حتى سقراط هذا ، الذي خرج من صقر ، لكي يسوس الماخور بالحكمة والحلوى ، يجب أن يغادر المحل . هنا يسيطر المرء ، سيطرة كلية ، ونهائية او فلا . انا الحاكم بأمره هنا . صاحب الامر . الاول والاخير . وكل ما هنا ، من جدران أو

عاهرات ، او عمال ، يجب ان يكون في خدمة رغباتي ، وسعادتي.

هذه الرقابات ، هذه النصائح . هذه الاخوة الشريرة المعلن عنها ، كل هذا ، له موضع آخر .

قرر خاتم ، ثم نهض واقفا ، استخـــرج خنجره . فتحه باسنانه . احمرت اذناه . احمر عنقه ثم وجهه ، راحت عيناه تتاملان الجدران الاربعة ، في الآن الواحد ، فتحت المرأة فاها .

نهض الحاج كيان ، وقصد الباب . استوقفه :

ــ انتظر . الى اين تهرب ؟

ــ ختومة . ذاك الحاج كيان .

امتدت يده . تلقى خدها صفعة قوية . شعرت بلذة ممزوجة بالالم . مدت اصابعها تتحسس موضع الصفعة .

ــ عندما اكون اتكلم ، لا اريد ان يقاطعني احد .

وقف الحاج كيان في موضعه . ظل حمود الجيدوكا يحـدق في الخنجر ذي الحدين .

ــ انه صاحب الحق الاول والاخير . انا لا انازعه في شيء . ليس من سبقوه افضل منه . وليس من سياتي بعده ، افضل منه ايضا . الماخور ماخور . والهزي هزي . لقد اعلن المتنبي عــن ذلك منذ قرون .

قرر الحاج كيان . وراح ينتظر الاوامر .

ــ من هو صاحب الامر هنا ؟

ــ وهل هناك غيرك يا ختومة .

قالت المراة . سكت حمود الجيدوكا ، وبادر الحاج كيان :

ـ ومن يستطيع في هذا البلد ان ينازعك الامر ؟ ان هزيا فتيا مثلك ، لا ينتظر اعتراف عجوز مثلي بهزيته ، انا في الخدمة . لقد أعلنت عن ذلك حينما أعطيتك رزمة الحلوى لتوزعها بنفسك .

ـ انت ايها الجيدوكا المشلول . يجب ان تغادر الآن بالذات . تحمل ما عندك من دبش وتطير ، تختفي من الميدان نهائيا . انظر جيدا الى هذا الخنجر . انني لا اريد ان ادخل في صراع ، مع اي قواد .

ـ تخرج او أطلب الشرطة يا حمود . امتثل لامر سيدك .

كان الموت ينبعث من عيني خاتم . كانت الزرقة تكسو وجهه الجميل ، وكان الزبد يتطاير من شدقه .

ـ لم يجد حمود الجيدوكا بدا من الانحناء والاذعان ، اللحظة غير مؤاتية ، ان كان في امكانه ، ان ينظم أمره بعيدا ، ثم يقتحم الميدان ، فليفعل ذلك . الآن ليس هناك سوى الانسحاب . الحاج كيان خان . الحاج كيان انتهازي سافل ، ليس في وسعه أن يفعل ، غير الخضوع للمعلمة ، ولمن تعشق المعلمة ، حتى وان كان كلبا . يعلم ان هذا الولد ، ليس هزيا بالمعنى الصحيح للكلمة ، لكن يتعامل معه ، كما لو انه هزي الهزية .

ـ ساحمل حقيبتي واغادر المحل . لن تجدي يا معلمة من يخدمك بامان واخلاص مثلي . ستندمين ، ان اليوم وان غدا .

ـ قلت اخرج والا .

زعقه . امسك الحاج كيان بكتفه ، وامره بالانصراف . انصرف وهو يتوعد . أعاد خاتم الخنجر الى حزامه . نهضت

العنابية ، مرحبة ، كأنه عاد من سفرة . امر الحاج كيان الذي امتثل بسرعة :

ــ هات لي بيرة .

طعم ماء النبع الواحد

انتظر خاتم ان تاتيه البيرة التي طلبها . شعر بظمأ . شعر بالغيظ . سقراط صقر هذا يلعب الغميضة معي . له ، كل الحق أن يفعل ذلك ، فانا هزي ضعيف ، لو انني اسندته الى الجدار ، وامسكته من عنقه ، وضغطت وضغطت ، حتى تخرج عيناه ، ثم اصفعه صفعتين ، واطلب منه أن يقبل تدمي ، وحين يحني راسه ، اركله في فمه ، فتسقط بعض اسنانه المسوسة . لو انني فعلت ذلك ، لما كان يتاخر في تلبية مطالبي ورغباتي .

سافعل ذلك ، حالما التقي به . سقراط ـ صقر الكلب .

ـ اورايت حاجك الزائف هذا . انه يبدي المودة ويخفي العداء . انا متاكد من انه يضمر شرا كبيرا .

ـ اسمع يا خاتم . هذا الحاج كيان . رجل شريف ونبيل وشهم . كان عالما في جامع الزيتونة ، وانا السبب في اغوائه . لقد استعنت بكل النساء ، لاحمله الى بيتي ، وهناك استوليت على لبه ، انه لم يكن عشيقي ، مجرد العشق ، هكذا ، انما عشقته ، لاسباب مجهولة ، كما عشقتك انت الآن . انه كل شيء بالنسبة

الي ، يومذاك . كان بلدي . كان قريتي . كان أسرتي . كان أمي وابي واخي والدم الذي يجري في عروقي . اتفهم هذا الكلام يا ختومـــة ؟

ــ لا .انا حمار ، لا افهم شيئا اطلاقا .

صنعها ، تسابقت الدموع الى عينيها . شعرت بالخوف . شعرت بالحب . شعرت بالاهانة ، أخرجت ثديها ، حاولت أن تسحبه اليها ، دفعها بقوة . سقطت على السرير ، داهمها بكاء مريــر .

خرج الى الساحة ، وراح يزار :

ــ يا حاج سقراط . يا حاج كيان . يا حاج الكذب والنفاق ، اين أنت . أما شعرت بانني في حاجة الى بيرة ؟

اطلت الوهرانية ، من باب غرفتها ، قالت ساخرة :

ــ الحاج كيان خرج . قال ، ان صاحب امره اليوم هــو نفسه . سيغيب يومين أو ثلاثة ثم يعود ؟ من ذا الذي يطلب الحاج كيـــان ؟.

ــ انك تتجاهلينني أيتها الماهرة .

ــ لا اتجاهلك ، يا شيخ . وانما اريد ان افهمك في مسألة يظهر انك تجهلها . الهزي في الماخور ، في أي ماخور ، لا يستطيع ان يكون هزيا ، بدون مساعــدة الماهرات ، انـــه يتهزز علـــى واحدة ، ويخدم باقي النساء ، افهمت ؟ اذا ما تعرض الحاج كيان ، لأي أذى ، سنطردك من هنا .

ــ يا أنت ، يا نحن .

الرجال يقعون في الغواية ، من اجل النساء ، لا من اجل النقود . المشقة التي تاتي من حب المال ، تدفع صاحبها الى البنوك ، والخزائن ، لا الى المواخير .

لقد اشتغلت في مرسيليا ، وفي وهران ، وفي الاصنام ، وفي الجزائر ، وما رايت سافلا يهجر واحدة ليعشق غيرها في نفس المحل . لو انك رسمت في كتفك ، بدل ، صورة حياة النفوس المسكينة ، صورة ورقة العشرة آلاف لكان ذلك اصدق .

خرجت المعلمة . رفعت راسها الى مصدر الصوت . كانت الوهرانية ، محاطة بنساء كثيرات ، تزبد ، مهددة بكلتا يديها . اتجهت اليها ما ان ابصرتها :

ـ اسمعي يا المعلمة ، نحن اخترن هذا الطريق لنكون حرات . لتكون فروجنا ، في متناول أيدينا ، نبيعها ، أينما شئنا . لقد اشتغلنا معك حتى الآن بكل نزاهة ، وفي جو ملؤه الاخوة والمحبة . لكن مرضك الذي سلط علينا لصا حقيرا ، يظهر انه سيضع حدا لكل ما بيننا . تعلمين انني اذهب كل ليلة خميس الى عشيقي ، الشخصية الكبيرة . وتعلمين ان حياة النفوس ، تستطيع باشارة من اصبعها أن تحول هذا المحل الى سجن ، وان علجية ، في أثرها ، أكثر من واحد ، ممن بيدهم الضبط ، والربط ، في ادارة الشرطة .

الهزي هزي ، والعاهرة عاهرة ، والماكريرة (١) ماكريرة ، وهذه التصرفات الغريبة ، التي لا راس ولا ذنب لها ، لا نفهمها .

---

(١) ـ يستعمل في الوسط بدل لفظة ماكريله الفرنسية ، لنعت صاحبة الماخور والوسيطة بين النساء .

ليخرج الولد اللص ، من الانقباء ، خلفك ، ويعلن عن نيته ، لنعرف مع من نتعامـــل .

كانت الوهرانية تنفجر غيظا . كان انحناء الحاج كيان ، يتحول عندها الى تطاول . قال لها ان مجرى التيار ، يتوجب ، ان لا يكون له اي وزن ، وان هذه هي الحكمة ، وان اليــاس ايمان غير صحيح ، بأن الزمن يتوقف . لقد سيطر الولد بخنجره ، وبذراعه ، وبشبابه ، ولكن لا شيء يعني أن سيطرته نهائيــة . كل قوي ، وراءه أقوى منه ، وكل حال لا بد أن تعقبها حال أخرى . في كيان كل ضابط جديد ، يتولى مسؤولية الجزيرة ، يهيأ له أن ما يتصوره من التصريف ، ومن الضبط والربط ، هو آخر ، مـــا تفتقت عنه عبقرية الانســانية لحل أزمة كيان .

نفهمــه .

ان صبرنا معه شهرا ، قلنا ان هذا قليل . ان صبرنا عنه سنة . قلنا ان هذا قليل ، لكنه مؤثر . ان صبرنا عنه أكثر من ذلك ، رأيناه ، يكتب العرائض تلو العرائض ، ويطلب منا أن نوقعها ، يطلب منا بالحاح وبذل ومهانة ، أن نساعده بتوقيــع العرائض حتى يعجل بنقله .

ينتهي به الامر الى الايمان ، أن حل المشكل ليس رهــن شخص معين ، وانما ، خلاصة تطور عام ، لنسق الحياة ، في مجتمع برمتــه .

كيان يا ابنتي ، وما جرى في الدولة الاسلامية منذ انهــزام علي ، او موت محمد بالاصبع ، وما يجري هنا الآن ، شيء واحد . صدقيني ، فأنا لا أتحدث جزافا ، وانما عن علم وتجربة ، ومعايشة . المتنبي ، يقرر : أن الموت أعذر ، وان الصبر اجمل ، وان البــر

اوسع ، وان الدنيا لمن غلب . لقد جعل النذل ، الدنيا ، مفهوما ، للقوة والسيطرة وممارسة الحياة . لقد كان هزيا ، من نوع خاتم . ينظر الى الجدران الاربعة في الآن الواحد . ولو ان عاهراته ، كانت الملوك ، والامراء ، والسلاطين الواهين .

ازداد حماس الوهرانية ، وهي تتذكر كلام الحاج كيان الذي لا تفهم منه الكثير . ارتفعت ايدي النساء ، يؤيدنها دونما مبرر واضح . شعرت العنابية ، بأن حياتها ، في خطر . التفتت الى خاتم . تناولت يده تعيده الى جناحها ، قائلة :

ـ ليس من الفائدة الدخول في معركة معهن . لو كن يقدرن او يتبصرن ، أو يخجلن ، لما كن ، هنا . هيا يا روحي . هيا .

ـ لكن الحاج الخداع ، اين ذهب .

ـ ارجوك ان لا تهتم بامر الحاج كيان . أعتبره غير موجود . انه هو نفسه ، يعتبر أن حياته الآن زائدة ، وانه كان من الجائز ، ان يموت في ادغال كيان قبل اليوم . انه لا يضمر لك سوءا يا ختومة ، فلم لا تحبه .

ـ لو كان يعترف بي حقا ، لجلب لي قارورة البيرة التي طلبتها . يجب ان يدفع ثمن هذا التجاهل .

التفتت العنابية ، قبل أن تدخل جناحها وتساءلت مستغيثة ، وهي ترى أن كل شيء حولها ، يتحول الى قفر وخواء :

ـ واينه على الاقل . اين الحاج كيان ؟

ـ الحاج كيان ، يوجد ، حيث تعود أن يوجد ، لقد أجبره لصك هذا ، على ان يعيش السبت دون سبت . لقد حمل سلته ، وانصرف ، ردت الوهرانية ، وراحت تغلي في داخلها .

لو فهمني ، لما كنا في الوضع الذي نحن عليه . عرضت عليه ، أمرين ، فلم يأبه لاحدهما . قلت له ، يا حاج كيان ، معي ما يمكننا من شقة ، وتجارة صغيرة . هيا نتزوج ، ونغادر الوسط. ننجب اطفالا ، نرسلهم الى المدرسة . يتخرجون . يصيرون أطباء ومحامين ، وضباطا . نتحول الى فيللا . نقتحم من جديد الحياة التى خرجنا منها . نعود بالحسب والنسب ، نعطي بناتنا لمن نشاء، ونزوج ابناءنا بمن نشاء ، ندخل في نسق أولي الامر ، وندع الذل لاهل الذل ، او نبدأ من طريق اخرى . ما دمنا هكذا ، نمسي في الماخور ، ونصبح في الماخور ، لم لا يكون الماخور ماخورنا ملكا لنا ، نصطنع ماكريرة ، واشتغل أنا الى جانب كل البنات الجميلات اللائي انتقيهن بنفسي .

رفض الحاج كيان ، وقال :

ـ يا بنت الناس ، اذا كان النبع واحدا ، فلم الجري وراء طعم مغاير للماء . انت تاجرة ، هنا او هناك ، وانا هامشي هنا او هناك ، فلم الخوف ، والجري والجشع ، ان بال من يمر على كيان ، اطول من أن تهزه عوارض مثل هذه . في الماخور هنا ، انت جزء من بضاعة كبيرة تباع بالتقسيط ، من كدس ينقص ويكبر ، وانت في الدار ، وفي غمرة الحياة الزوجية مريض بالسرطان ، محكوم عليه ، بالسير نحو نهايته ، خطوة فخطوة ، وبدون أية مقاومة . حتى يفتقد الخطوات ، وينتهي سيره .

أيها الجسد العسلي ، يا ابنتي الوهرانية الجميلة اللطيفة . لا يحسب الا الشيطان . في زمن الخواء هذا ، يكفي المرأة ، أن تحب شبحا مثلي ، ان المواخير لا حدود ولا حصر لها . وان البيوت لا حدود ولا حصر لها . فانت هنا أو هنالك . أنت بطيبتك ، وبجمالك .

اذا كنت تثقين في . فثقي انك اشهر امرأة صادفتني في حياتي الطويلة الشاقة . ولئن كان الهزية ، لم يكتشفوك بعد ، فذلك ، لأن الهزية الحقيقيين ، الذين يدفعهم الجمال الى الغواية ، لم يظهروا بعد .

هكذا ، بالنسبة لي ، أنت خير من عشيقة ، واحب من زوجة ، دعك من أوهامك هذه .

ـــ الحاج كيان ، يالعنابية ليس هنا . لقد هرب من محلك الى حيث لا يعلم الا الله ، لقد ذهب ليعيش السبت في غير السبت ، الا يكفيك إن عجلك معك ، يا وجه البومة ، يا راس الشؤم .

شكـوة السمـاء

السمـاء تروح وتجيء ، التينة والصـخرتان تروحان وتجيئان . هذا العالم شكوة في حمائر منصوبة في الفضاء ، ويد قوية تدفعها هنا وهناك ، في انتظار ان يتحول الماء الذي فيها الى لبن ، فيزبد .

تصـاعد الدخان . امتد الاصبع الى حلوى الترك . راح اللسان يتحرك يمينا وشمـالا . انتظر أن تخرج خولة أخت سيف الدولة . لكنها لم تفعل . اليوم ليس سبتا ولا أحدا . اتضح أن خولة هي التي كانت تزور الخق وليس أنا .

من هم زوار الاثنين اذن .؟

اليوم أنا الزائر . آه ، كم هو مريح الموت . انه الحـل الوحيد ، للعجز النهائي .

أنا اموت . قباض الارواح يحضر . يا قباض الارواح ، قبل ان تقبض الروح ، استرح قليلا . هاك أنفاسا من الغليون ، واصبع العسـل . تفضـل اجلس . ما هي الاجرة التي تتقاضـاها . انك

عبد اذن ؟ يا لك من مسكين . هاك انفاسا اخرى . لا . لا تستسلم للضحك . انه من فعله . لو لم ارك تضحك ، لما صدقت ابدا ان قباض الارواح يضحك . تقول : هذه المرة الاولى التي تضحك فيها . يا لك من مسكين . تنفس ورحم على ابيك.الحاج كيان . وكيف تقوى على اداء عملك في هذا العالم الرحب . آه . تقول ! انتم كثيرون . غريبة . ما كنت اعلم ذلك . آه . والعالم مقسم الى مناطق ، كل فوج منكم في منطقة . الم تفكروا في ابدال الشغل ؟ الم تطلبوا ذلك ابدا ؟. تقول . وجودكم مرتبط بقبض الارواح . الارواح هي بدلات اذن .

قهقه . قاه .. ها ها ..

كل شيء بضاعة ، في هذا الكون ! حتى حياة قباض الارواح. يا للهزي الذي لا يشبع . انني مستعد . ارحني يا قباض الارواح . هاك بدلة .. مع معلمة عجوز، تملك كثيرا من النقود. وكيف أدعك، اعدلت عن قبض روحي . لا لا لا . الصداقة شيء ، وممارسة المهنة شيء . انا بدوري لا يساعدني ان اموت . لا . اذا كان غليون ابيك الحاج يشغلك عن عملك ، فلن اعطيك نفسا آخر .

ها ها ها . قه قاه .

اضحكتني . ضع اصبع عسل في فمك ، مع قليل من الحشيش ، وحاسبني . ذق بلغة حمدان قرمط انها طعام اهل الجنة في الارض . اعندكم زنوج في الجنة ؟ والعبيد ؟ وسادة الارض التجار ؟ والهزية ؟ تقول : لم تدخل الجنة ، ولم تعرفها . يا لك من تعيس . هكذا اذن ، قباض الارواح كائن ارضي اذن ؟ جباة ضرائب وخراج ، ومحتسبون ، اقتطعت لكم مقاطعات ! تفضل ، تفضل ، اغطس اصبعك أكثر ، امزج الكميتين جيدا ، لا يهمك ،

الكمية تكفي لجميع قباضي الارواح بالمنطقة . قليلا من الهدوء والصمت . مع البلغة ، لا بد من التامل . لا تريد أن تقبض روحي . ليكن . لن أعطيك نفسا اخر ولا بلغة أخرى . انت ايضا تتمنى أن تقبض روحك . أرفض ممارسة مهنتك حينئذ . انضم الى حمدان قرمط وصل خمسين ركعة في اليوم ، ودع الهيصم يحار في جني المحصول . أما تشكلت عندكم حركة قرمطة ؟ تقول : انتم نحن ، ونحن انتم ، وليس هناك سوى الجبة ؟ لا . انت قباض ارواح متواضع جدا . تواصلت الرحلة نحو الاعماق .

ــ انت الآن الخليفة العباسي ، المعتز بالله بن المتوكل . اخوك المنتصر ، قتل اباه المتوكل ، ليستولي على الخلافة ، ويموت بعد ستة اشهر بسم طبيبه ابن طيفور جئت لتسد الفراغ الذي خلفه هروب المستعين بالله الى بغداد . قادة العساكر يبايعونك فما انت فاعل .

ــ ساكون خليفة حقيقيا ، سواء اكنت هنا بسامراء ، أو هنالك ببغداد . ابي لم يقتله اخي ، ولم يظلمه الاتراك ، قتلته افعاله العابثة . فما ان تولى حتى سال لعابه لأملاك آل احمد ابن ابي ولد قاضي القضاة فراح يعمل فيهم السيف ، وسمح لعدو الراي والعدل ، يحيى بن أكثم الشافعي ، أن يهدم قبر الحسين ، وان يطلق سراح جميع الفقهاء المتزمتين ، ويحرم البحث الفكري وان يضطهد اهل الذمة ، وان يهدم البيع النصرانية واليهودية ، وان يجبر غير المسلمين على وضع علامات مهينة على لباسهم ، وان لا يركبوا سوى البغال والحمير . وعندما أعجزه اسرافه عن دفع رواتب الجند ، هرب الى دمشق . ليعود بعد قليل كالطفل، وتمتد يده الى ارزاق مساعديه ، بما فيهم وصيف .

لم يكن المنتصر المسكين ، سوى الحجرة التي تعثر عليها

الاعمى ، ليسقط السقطة الاخيرة .

اخي المنتصر ، لم يقتله احد . لقد حلت اللعنة بقلبه ، فتلوث دمــه .

يا وصيف يا بايكباك . يا رخوج . هاكم الهبات . هاكـم العطايا . ليأخذ كل منكم مقدار حقده على المستعين بالله ، شقي بغــداد .

سكتُ وراح يدقق النظر .

اذا ما افلحت في استئصال شوكتهم ، كنت خليفة حقيقيا . لتنته هذه اللعبة . ولتعد الى الخلافة نصاعتها . الخليفة ظل الله في الارض ، وليس ظل وصيف او بغا ، من قتل ابي ، لا يتــورع من قتلي ، من سمم اخي ، مستعد لنهش لحمي . ليقتتل العلوج الترك فيما بينهم ، فيما انا احاول أن اصفي حسابهم .

اذا كانت المسالة متعلقة بالاتراك ، فسأضع حدا للاتراك . نعم وليكن . دعهم يضعفون اولا في محاربة بعضهم ، فريق يناصر المستعين ، وآخر يناصر المعتز . كل خلاف رحمة . ينبغـــي أن لا اظهر بمظهر الحازم ، قبل أن يستتب الامر لـــي ، والا تحول اعداء المستعين الى أنصار له .

ــ ما عندك يا وصيف ؟

ــ أخبار بغداد سارة . العدو يتقهقر .

ــ لا يهدأ لي بال ، حتى يأتيني راسه يا وصيف .

ــ راس من يا مولاي ؟

ــ هذا السؤال محير يا وصيف .

واضاف في سره ، راسك ، وراس بغي ، وراس الخليفة الاخر .

ـ وانت يا صاحب الدولة ، ما وراءك ؟

ـ بغداد وسوادها بلا ميرة . والاسعار فيها خيالية ، والبلاء يعظم ويعظم ، وهناك ايضا ، تحركات بين النهرين يا مولاي .

ـ الا يزال انصار ابن ابي طالب ، ينادون بخلافته بعد قرنين من الزمن ؟

ـ هؤلاء ليسوا شيعة على ما يبدو يا مولاي . انهم انغال امريقيا الذين يعملون في السباخ .

ـ وما يريد الزنوج ؟

ـ يدعون يا مولاي ، أن الاسلام غير مطبق .

ـ وما يمنعكم من تطبيق الاسلام . مروا العالم كله ان يطبق الاسلام .

ـ انهم يستنكفون عن العمل في الارض يا مولاي .
ـ مروا اسيادهم بجلدهم . وانت يا صاحب الخزينة .

ـ مولاي . الخراج يتعثر . والجباة يضيعون الطريق بين بغداد وسامرا ، ويدكم فوق هذا وذاك أطول يا مولاي .

ـ وامي ماذا تقول ؟

ـ أم مولاي ، على ما بلغني ، في حوزتها مليون وثمانمائة الف دينار . وعدة حمولات من الجواهر والحلي .

ـ والجند كيف حالهم ؟

ـ لقد نزلوا عن كل مالهم ، ورضوا منه بخمسين الف

دينار يا مولاي . لقد اقنعتهم بذلك بعد لأي .

اجاب وصيف ، متحمسا ، فاضطر الى الابتسام ، وراح يفكر ، فيما بلغه ، من قول المستعين للاتراك « لقد اجبتكم في كل ما طلبتموه ، وادررت لكم الارزاق حتى سبكت لكم آنية الذهب والفضة ، ومنعت نفسي لذتها وشهوتها . كل ذلك ارادة لصلاحكم ورضاكم ، وانتم تزدادون بغيا وفساداً وتهديداً وامعانا » .

ــ انني لم انه كل ما عندي يا مولاي .

قال صاحب الشرطة ، فرمقه عابسا :

ــ وماذا ايضا ، صدق عمر بن الخطاب اذ قال لا يدخل الجنة جاسوس .

ــ العلويون اصحاب الحسن بن زيد يستقلون بطبرستان . والصفاروية يفعلون كذلك في سجستان .

ــ ارسلوا الى كل من ينفصل ، أن الخليفة يعترف به واليا .

ــ نعم الراي يا مولاي .

ــ هيا اغربوا عن وجهي .

مسكين المستعين بالله . قتلوه في طريقه الى واسط . احمد ابن طولون الذي سلمه للقتل مع انه اختاره لصحبته الى المنفى ، يجب أن يبعد . يذهب الى مصر . ما دام القادة والجند يحاربون الزنج ، والصفارية والعلويين ، يجب أن استخلفهم بسرعة بالمغاربة . هيا أيها العرب . هاكم ما كنتم طيلة حياتكم تلومون العباسيين عليه . تعالوا احموا الخليفة ، « فانني لاخاف أن ينزل علي بغا من السماء أو يخرج علي من الارض » .

الآن انا مطمئن . مصيري لم يعد بين أعلاج الترك وحدهم . اخوتي العرب في الجيش ولن يسمحوا في ، مهما كان الامر .

هات المال .

لا مال ، يا أمي ، يا ذات المليون وثمانمائة الف دينار أعزي ابنك المعتز بالله بخمسين الف درهم . لا ما العلل يا موسى ابن بغا ؟ تعال الى هنا . اصنعوا صندوقا من الدبابيس الحادة ، أيها المغاربة والاتراك حاكموه . اغلقوا عنه ، وقلبوه على جميــــع الجهات . لا يريد ان يدفع أجرتكم .

لا مال . الخلافة اعم من أن تكون عربا أو تركا او زنجا ، لن يكون الترك او العرب أو الزنج ، أكثر شفقة علي من أمي ، أو من المنتصر أخي .

ان يكون المرء خليفة ، أو سيد ارض ، الامر سواء .

هنا الجند . هناك الزنج .

الوضع كله فاسد . لن يصلحه خليفة ، لن يصلحه دين . ليتني ما رضيت بمزاحمة المستعين ، اذ ما الذي يدفع الى البكاء من لم يحن دوره في ذلك .

آه . هذه المسامير . آه . حلي أمي وجواهرها ودنانيرها .

عصفـور الجنـة

ما ان وجد حمود الجيدوكا نفسه خارج الماخور ، حتى شعر بأن الحياة خواء ، تلهف على طعم لذيذ ، وجو دافىء ، وفراش وثير هذا ما يشغل الناس كلما انحدروا أقتنموا ، وكلما صعدوا تلهفوا . بهائم في بهائم . لا يليقون الا لحمل الاثقال وجر المحاريث . اعداء ، جميع الناس اعداء ، يجب أن يسحقوا بالجملة وبالتفصيل .

تــف .

واحد هنا يبيع الخبز . آخر يبيع الزيت والملح . اخر يبيع الجنس ، آخر يبيع الكل ، ويشتري الكل ، ولا يقبض شيئا . ماذا يفعل ، من لا يجد ما يبيع ؟ من ليس له مكان يبيع فيه ؟

يموت . يموت أن كان ضعيفـا ، او يمد يده يبيع البكاء والاستعطاف والدعوات ، ان لم يكن ضعيفا يجد مكانا له ، يدحس برجليه ويديه ، حتى يجد فراغا يحتويه .

انا حمود الجيدوكا ، لست ضعيفا ، أبدا لست ضعيفا ،

لا تزال علجية تعشقني ، ولا ازال أقارع أبناء العشرين ، انا حمود الجيدوكا قوي ، اقوى من جميع هؤلاء الذين يبيعون ويشترون . اذا كان الماخور ماوى لجميع من له بضاعة يبيعها ، وصدرا رحبا ، لجميع من له نقود يشتري بها تلك البضاعة ، فانه لا يضيق ايضا ، بقوي مثلي له يدان قاتلتان . حمود الجيدوكا ، سيظل حمود الجيدوكا ، صاحب الحزام الاصفر، حتى آخر رمق من حياته. سيموت وعليه حزام أصفر . يموت موتة شريفة ، كالياباني . ارتب الامور ، انظم هيئة أركان تساعدني ، واعود ، أمرغ خاتم في الارض ، احطم أنفه ، يدخل في خدمتي ، أو يغادر المدينة .

نعم أنا حمود الجيدوكا ، هزي الهزية .

صاحب الذراع يطال حقه ، والضعيف يموت . والخرائب التي لا نبول عليها حين تكون خرائب ، يأتي يوم وتصير ... ، تنال احترام جميع الناس . البنت حياة النفوس ، لي ولي وحدي . سأتزوجها . سأتخذها خليلة . ستشتغل لي . سيكون كل ذلك في الوقت الواحد .

يجب أن انظم نفسي بأقصى سرعة . علي ان اكون مستعدا للحضور في العرس ، ولنيل نصيبي منه .

قصد راسا ، ماخورا خربا ، صانعاته كلهن عجائز تجاوزن الخمسين ، يقفن عاريات ، في ابواب حجراتهن المتصاقبة ذات الابواب الزرقاء . عليهن كميات كبيرة من المساحيق والشعور الاصطناعية . في افواههن سجائر ، يستمددن منها الدفء ، رغم حرارة الطقس .

كان الصمت برين ، وكان الذباب يطن ، وكانت رائحة

البول تنبعث من كل زاوية بارزة ، او صخرة ناتئة في الجدران .
غمزته احداهن ، ونسفت وجهه بدخان ازرق . لم يلتفت اليها .
اهانة لحياة النفوس ، ان اعرض نفسي لمثل هذه السخرية .
شمخ ، ومر متبختر .

قصد كوة صغيرة في الجدار ، ذات بـاب ازرق ايضا ، ينبعث منها لحن وهراني صارخ العبارات الجنسية ، امامه عدة صناديق من قوارير الجعة الفارغة ، انحنى . وجد نفسه وسط غرفة ذات لون احمر داكن ، تغطي معظم جدرانها ، صور نساء في مختلف الوضعيات ، وبمختلف الاحجام والالوان ، خلف المشرب الصغير ، يقف شاب في عمر خاتم ، يرتدي قميصا شفافا اخضر وسروالا ابيض من قماش رهيف ، شعره الكستنائي ، ينام في وضع جد انيق ، يلمع بالدهان . في عنقه منديل احمر وفي معصمه ساعة مذهبة . نحيف ، وجهه تعلوه سحابة دكناء .

ملأت خياشيمه رائحـة ابخرة متعـددة . دهش للجـو الغريب .

ــ مرحبا بك ، حمود الجيدوكا .

ــ اهاه . تعرف اسمي ايضا ؟

ــ ومن لا يعرف حمود الجيدوكا اسد دار العنابية . نراك دون ان ترانا يا خويا يا حمود كيف حال الحاج كيان ، انا عصفور الجنة . ها ها . هكذا اسمي .

ــ الحاج كيان بخير . دعنا منه . هات لي بيرة .

ــ بيروة او اية حاجة اخرى ؟

ــ كما تشاء . لكن قل لي ، اولا ، ابحث اين أبيـت عدة

ليال . وأبحث عن باباي البوكسور .

ـ يمكنك ان تسكن هنا دهرا كاملا . العجائز هنــا في حاجة الى من يؤنسهن في وحدتهن ، وينهر عليهن الذباب .

ـ ماذا تقول يا رجل ؟ أو نسيت بعد ، ان حمود الجيدوكا هو الذي يتحدث اليك .

ـ اقصد ، من يبادلهن الحديث . انهن لا يتحدثن مع بعضهن الا حين يتخاصمن ، كل واحدة ترى ان جارتها ، ابشـع عجوز على وجه الكرة الارضية . ها ها .

ـ لم تستتني بعـــد ؟

ـ آه . هاك هذه السيجارة الامريكية اولا ، انها مشحونة، بكمية كافية لنقلك الى الواق واق .

ـ اهــي ..؟

ـ نعــم .

ـ لم اتعود ذلــك .

ـ جرب . ستبغض البيرة وغازاتها ، والنبيذ وجنونه . ذق الحكمة . وربنا ورحمته .

ـ هـــــات .

اشعل السيجارة . وضع عصفور الجنة ذرات من البخور فوق كانون كانّ خلف المشرب . تصاعد الدخان . غير الاسطوانة من على الحاكي ، انبعث صوت فريد الاطرش ممزقا للقلوب « نجوم الليل دموع تبكي عذابي وشقاي ، سواد الليل سطــور تحكي لوعتي وأساي ، ليه الظلم ليه ، ليه يا ربي ليه » .

ــ ساعود بعد قليل .

قال عصفور الجنة . وخــرج . سرعان ما نسيه حمود الجيدوكا . كان وسط بحر زاخر بالنمل . امــواج عظيمة من النمل ، تمتد وترتفع . العالم كله بحر واحد من النمل . انت فقط تختلف عن النمل ، لكن ها انك تتحول الى كيس كبير مليء بالنمل . انها تكتشف ثغرة في راسك ، وسط الجمجمة بالذات ، انها تدخل بسرعة خارقة ، لتسري في كامل جسدك تلتهم ما فيه . انت فعلا تتحول الى كيس من النمل .

ليس في البحر سوى النمل . الكيس نمل ، والنمل كيس .

لو انك تتمدد ، لو أن الكرسي ، اقصر بقليل . حين يكون العشب الاخضر مبتلا ، بالندى ، لا يليق بالمرء ان يتمدد فوقه ، ولا ان يسير حافيا . لينتظر حتى تداعبه الشمس وتجففه . يتمدد اذ ذاك ، ويستسلم لاغفاءة لذيذة .

لو ان حياة النفوس لم تكن خيالا وطيفا ، لا ستأثرت بها . انسف جميع من في الارض . ابقى منفردا بها . اضعها فوق ربوة عارية ، واتمدد متفرجا عليها .

لكن لم لا اتحول طيفا وخيالا ، فالحق بها . اية صعوبة في ذلك . لا . المحب يتبع حبيبه الى واق واق ، والثلث الخالي ، وجزيرة العشاق .

انا طيف . انا روح . اين انت يا حياة النفوس ، يا روح الكــون .

دخل عصفور الجنة اولا ، تبعته امراة في الخمسين ، حيث وجلست . مد حمود الجيدوكا يده مصافحا ، وظل وقتا طويلا يحتفظ بيد المراة .

من أجل حيـــاة النفوس

نصب خاتم أحد مساعديه ، في المشرب ، في انتظار العثور على كهل او شيخ ، يستطيع ان يؤدي المهمة ، بسـعة بال ورحابة صدر ، وكلف مساعده الآخر ، باتمـــــام اجراءات العرس ، وبالاتصال اولا وقبل كل شيء ، بمن تولى جمع اطفال الفقراء والمعوزين ، وهمس في اذنه :

ــ لا بد ان أعرف مصير حمود الجيدوكا ، والى اين يذهب الحاج سقراط ــ صقر .

ــ لن يطول أمر ذلك .

ثم التفت الى العنابية ، معلنا بابتهاج :

ــ وهكذا لا احد ضروري في هذا المحل ، كما ترين، الضروري الوحيد ، هو هذا ، الذراع . القوة .

ــ كما يروق لك يا ختومة ــ الا ان الحاج كيان ، ضروري ،

انه اب واخ جميع الصانعات هنا . انهن يبكين في صدره حين تمتلىء عيونهن بالدموع يا ختومة .

— اذا كنت تثقين بالحاج سقراط هذا ، فلا مانع عندي من بقائه ، شرط ان لا يدخل انفه في أي شيء . وأن يعتذر أولا وقبل كل شيء ، عن عدم تلبية رغبتي في قارورة البيرة .

— « وانا وانا الوحدانية . وانا قليلة الوالي » .

— « عيني يا عيني . رحنا وراحوا عنا ولا حد منا اتهنا » .

كانت النبرات ، الى جانب شحن الحزن ، والاسى التي تحمل ، تعبر عن يأس ولا مبالاة . لقد شعرت النساء ، كلهن ، بما في ذلك المعلمة ، ان هنلك شيئا تغير في المحل ، وأن هذا التغير ليس بالجديد عليهن . انه طبيعي ، بالنسبة للحياة الرتيبة ، المرحة الى حد ما ، التي مرت ، مدة شهر كامل .

عندما بكت الوهرانية ، مثارة بالاغنية ، قالت لها جارتها :

— المذبوح مذبوح ، للعيد أو لعاشوراء . فارقنا اهلنا وذوينا ، آباءنا وأمهاتنا واخواننا وحتى أبناءنا ، لم نأسف ، فما بالك بهذا العشيق أو ذاك ؟

— ولكن يجب ان نضع حدا لهذا الاهوج .

— لا يا أختي لا . اهوج نعرفه ، خير من اهوج لا نعرفه ، نحن لسنا في جامع . اننا في ماخور ، غارقات في الغواية والمشاكل الى اذقاننا ، فلماذا نتدخل في شؤون غيرنا . من لم يعجبها الوضع منا ، تغير المحل ، وربنا كبير ورحمته واسعة .

رن جرس الباب ، دخل القروي ، اتجه مباشرة الى البهو .

دق بعصاه على المنضدة . اتاه القائم على المشرب يتبختر ، أمر ان يحضر اليه ، قبل ان يصله :

ــ بيرة غير باردة كثيراً .

ولى مسرعا ، هذا أول زبون سيخدمه ، ليتدرب فيه كما ينبغي . لولا ختومة ، ولولا عرس بغل هذا لما لوثت يدي بأي شغل مهما كان . العرس قريب على كل حال .

عندما ابصر حياة النفوس في الشرفة ساهمة ، هتف وهو يشير بعصاه :

ــ يا حلوة الحياة ، ياه ياه .

ابصرته . ضحكت . اشار بيده ، نزلت تتثنى بقامتها الطويلة الرشيقة ، البيضاء المحمرة ، وبشعرها المنسدل على صدرها .

شعر بالارض تهتز تحته وتميد . شعر بقلبه ينفطر . اذا ما قبلت ــ ولا بد ان تقبل ــ آخذها الليلة بالذات ننهي الاجراءات القانونية ، نتزوج ، ينتهي الامر . تبقى الاولى التي زوجني ابي بها قسرا ، في البادية ، واعيش مع هذه في المدينة . لن اغادر العاصمة حتى اعود بها .

ــ ماذا قلت يا حياة الحلوى ، هل نسافر الليلة ؟

ــ الى اين ، يا روح عيني ؟

ــ الى دارك يا عزيزتي .

ــ ولكن لم كل هذه العجلة . هل شبعت مني هكذا ، فاردت ان تمسخني الى زوجة ؟

ــ لا يا حلوة الحياة . صلاة الفاهمين ماذا يبطئها ؟

ــ انا صغيرة . لم اشبع من دنياي بعد ، وهذا وعد الله والمكتوب ، وان شئت الصـــــراحة ، ارفض ان اخرج في الوقت الحاضر . لم اجمع ما يكفيني من النقود ، ولم احصل على ما يرضيني من الحلي . من وصل الى الماء يجب ان يرتوي يا روح روحي .

ــ انظري . لقد احضرت اليك هذا العقد اللؤلؤي هدية . ان جيدك الطويل ، حرام ان لا يزينه اللؤلؤ .

ــ اوه كم هو جميل !؟

ــ قدمي راسك ، ساضعه بيدي في عنقك يا غزالة ، يا ريم .

ــ واحبابنا بالروح جاروا علينا .

تردد الصوت في الطابق الثاني . دق الجرس . دخل زبون يسأل عن حياة النفوس . التفتت . كان الشاب الاسمر ، الذي اوشك ان يصطدم مع خاتم بسببها . ابتسمت . ابتسم . رجته أن يعذرها . رفض .

ــ هو قبلك . انظر الى الهدية التي قدمها لي .

ــ لا يهمني . سانتظر . اشتريت بدلة اتصال من أجلك . انا آتي هنا على بعد اربعين كيلومتراً من اجلك دون غيرك .

طال الحوار . اغتاظ القروي . شعر بانه صاحب الحق ، الذي يجب ، على جميع الناس ، ان يعلنوا انه على حق ، لعدة ايام . لقد اقدم على اهداء ، عقد من اللؤلؤ ، لامراة في ماخور ، من اجل ان تتزوجه ، وفي هذا ما فيه من سيماء الحب والتضحية والشهامة ايضا . فليحترموا شجاعة الرجال ، هؤلاء الحضر ، أصحاب ستين وسبعين دورو .

ارتفع الصياح . خرج خاتم . راح ينظر في كامل الجهات . سأل حياة النفوس عما هنالك . رفعت كتفيها ، وهي تشير الى العقد . خفق قلبه .

ـ هذا حظي التعيس . كلما طلبتها قيل لي انها منشغلة . انا لا استطيع مع غيرها . مسألة ذوق كما ترى .

امتلأ قلب خاتم بمشاعر لم يستطع أن يحددها . انه غار منها . حسدها . غار عليها . حسد القروي والشاب الاسمر . استشعر تفاهته ، بسبب ارتمائه في أحضان العنابية .. لو أن بين يديه كأسا او قارورة ، أو فنجانا ، او اي شيء ينكسر ، لكسره . عندما يكسره ، سيشعر لا محالة ، بأن الصفاء يعود الى قلبه . الا ليت حياة النفوس هذه ، دمية من فخار ، يقذف بها الى اعلى ، ويرقبها وهي ترتطم بالبلاط وتتهشم .

ـ اصعدي مع الرجل ، ثم عودي الى جليسك .

ـ لا . لا تتدخل في مثل هذه الامور .

ـ وهل هو اخوك او زوجك ؟ يا له من شهم !

اغتاظ خاتم . لقد وجد المبرر لتكسير شيء ما . ليصفع هذا القروي المغفل صفعتين ، ويقذف به الى الخارج . قرأ البدوي الشر في عينيه . نهض بسرعة ، تأخر الى الخلف ، وقف الشاب الاسمر يتفرج ، ويداه في جيبي سترته .

ـ انني احذرك . اياك وهذه الحماقة .

لم يهتم خاتم . ركض نحوه . جانبه الرجل . حمل عصاه الى فوق . هوى على يديه بكل قوته . الجمل يناخ بالضرب على الركبتين ، هكـذا :

ــ هسس .

تأوه خاتم . شعر بالم شديد في يديه . كانت الضربة قوية ، مشحونة بالحقد والكراهية . لم يكد أن يستعيد نفسه ، ويقوى على تحريك يديه ، حتى شعر بالموت يداهمه . تلقى ضربة قوية في عرقوبيه . كانت الضربة اقوى واحد من الاولى ، واشد ايلاما .

ــ هس . هس .

مد يده ليستخرج الخنجر ، المعركة جدية ، ومصيرية ، هذا القروي القذر يجب ان ينهزم بأي ثمن . أصوب من بعيد الخنجر الى ذراعه ، او الى صدره . ليمت . كلب مات . المعركة حاسمة . ان انهزمت ، فقدت هيبتي بين مساعدي ، وبين العاهرات .

ما ان كادت اليد تبلغحزامه ، حتى جمدت في موضعها . ارتخت اصابعها ، وفقدت القدرة ، على الحركة . اليد اليمنى التي عليها الاعتماد ، عزلت نهائيا . بدأ الالم في الذراع ثم انحدر .

ــ هس . هس .

انحنى خاتم قليـــــلا ، عندما تلقى الضربة الثـانية على العرقوبين . لم يكد ينشغل بالالم الذي اعتراه في ركبتيه ، حتى كانت العصا تهوي بقوة على قفاه .

ــ هس . هس .

سقط خاتم . جاء مساعده يجري شاهرا خنجره . تركه القروي حتى اقترب . جانبه قليلا ، هوى على يده بضربة قوية . سقط الخنجر على البلاط ، محدثا رنينا ، حاول مساعد خاتم ان يختطفه ، هوت ضربة قوية على قفاه ، بقي في مكانه .

ــ هس . هس .

كانت النساء واقفات معجبات ، بالحركات القليلة الفعالة .

حياة النفوس والوهرانيه وعلجية ، متحمسات جـداً . المعلمة مشدوهة ، مأخوذة بسرعة المعركة . الوحيد الذي يبدو انه لم يتاثر هو الشاب الاسمر . ظل واقفا ، ويداه في جيبي معطفه ، احداهما تتحسس بدلة الاتصال النحاسية .

ـ الانسان بنقوده ، ويتعرض للمشاكل . لست أدرى ، ما اذا كان علي ان انتظر أم أعود بعد مدة ؟..

استرجعت العنابية وعيها . اسرعت الى خاتم تجس نبضه ، كانت انفاسه تصعد وتنزل ببطء . رمقت القروي الذي عاد الى المنضدة يتمم بيرته ، ويدعو حياة النفوس الى مجالسته . لم تعرف ما اذا كان ينبغي ان تحقد أم أن تعطف عليه .

رغم ان الولد ولدها . روحها ، ودمهـا ، كيانها ، وبؤبؤ عينيها ، فان الدلال كثيرا يفسده . يشعره بالطغيان ولربما يبتعد عنـي .

الولد كان بحاجة الى تاديب ، طيلة هذين اليومين . المسكين ، انه يموت . سافقده . ساموت على اثره .

ـ هيا يا عاهرات ، اعنني على حمله الى الغرفة .

امرت احداهن باعداد ماء ساخن . واخرجت ثديها . ما ان لامست حلمتها لسانه ، حتى تحرك . راح يلهس ببطء . بان لها ، خلال الدموع ، انه في قماط أبيض وان رائحة الرضيع ، تعبق منه . انحنت ممتلئة بحبه ، وطبعت قبلة على جبينه .

السباحة

قادت المراة ، حمود الجيدوكا ، من يده الى مقرها . انقاد لها ، متخيلا انه شبح يسبح في عوالم وردية مع حياة النفوس ، اجلسته فوق فراش صوفي على الارض ، وضعت وسائد تحت مرفقيه ، وبين ظهره والجدار ، بعد ان نزعت حذاءه . شعر بالراحة التامة . زال عنه كل ضيق . طابت له السباحة في عالم الارواح . أحضرت كانونا ، وضعت فوقه ابريق الشاي . اشعلت عودا بنيا ، انبعثت منه روائح طيبة ، وفتلت سيجارة .

— خمس سنوات ، وانا مع العنابية . آخر الامر ، اجبرتني على الخروج ، جوعتني ، ثم طردتني . عندما كان القياد والشنابيط ، والجندرمة ، يشربون معي صناديق البيرة ، كنت عزيزة ، وعندما بدأت البنات الصغيرات يتهافتن على محلها ، اجبرتني على الخروج. جوعتني وطردتني .

— العنابية مجنونة .

— مع انها اكبر مني ، فانها لا تزال تشتغل .

ــ العنابية بدأت تعشق .

استولى عليه الضحك . سلم نفسه للضحك . كان يضحك ويشير باصبعه الى الكانون . عجوز مثلها ، في الخمسين ، تعشق طفلا في العشرين ، الغريب ان الطفل ايضا يعشقها .

تبلني يا خاتم . هاتي عشرة . هاك . احتضني يا خاتم . هاتي عشرين . هاك نم الى حنبي يا خاتم . هاتي مائة . هاك . هـا هـا .

وتعشق ق .. ق .. ق . المراة مجنونة بحق . عندما يأكل دراهمها ، يركلها ركلتين . يبصق على وجهها ، ويهرب الى غيرها . نعرفهم . نعرف هزية الدراهم . يعشقون حتى الكلبات . ها ها .

غلى ابريق الشاي . انزلته ، صبت منه في ثلاثة كؤوس . ذرت فيها مسحوقا اسود . ناولته كأسا ، وراحت ترشف بدورها بينما بقيت الكاس الثالثة في انتظار عصفور الجنة .

ــ لو لم تكن سافلة بحق . كيف تطردني بعد العشرة الطويلة؟ جوعتني وطردتني .

ــ انا ايضا طردوني من هناك .

ــ هكذا اذن يا حمود الجيـــدوكا . انت والخدمات التي تدمتها . الاسود كنت تقذف بهم من صدورهم خارج الباب . لا امان في دار الامان .

اغرورقت عيناها . تسابقت الدموع الى عينيها . شهقت . انفجرت بالعويل ، انتقلت العدوى اليه بسرعة .

خيل اليه ، أنه كان منذ دهر طويل ، يتهيأ للبكاء ، وأن اللحظة الحاسمة قد حانت .

لم يبك سابقا اطلاقا . الجيدوكا لم يعرف البكاء ابدا .

كان ينتظر هذه اللحظة ، فليفمل .

خفت صوت المراة ، بينما ظلت الدموع الغزيرة تنهمر من عينيها . كانت الغصة التي تملأ صدرها تذوب شيئا فشيئا .

ــ يا خويا حمود الجيدوكا . الدار دارك . الغرفتان والمطبخ، والدنيا واسعة وربنا ورحمته . لا تكون في حاجة لا الى اكل أو شرب ، أو لباس . ما زلت بصحتي . ثم انني شريكة لعصفور الجنة في المشرب ، وبعض التجارات . ربنا ورحمته ، والحسود لا يسود . ولتبق العنابية دمية محطمة بين اقدام الاطفال . ها ها .

ضحكت . ضحك حمود الجيدوكا ايضا .

ــ لا . ليس دمية . انما كلبة جرباء ، يقذفها الاطفال بالحجارة كلما رأوها . ها ها .

امتلأت الغرفة بالقهقهات ، لحظات طويلة ، ثم أخذ الصمت يرين شيئا فشيئا . اقتحم عصفور الجنة الباب ، تفوح منه رائحة عطر قوية .

ــ اين كاسي ؟

ــ هو ذا . من بالمشرب ؟

ــ اغلقته . لا احد . الزبائن المحترمون ، أخذوا بضاعتهم ومروا ، ولم يبق غير أن نغلق .

ــ انتيمها .

ــ كم الساعة ؟

ـ وما يهم . اللي في ايده كل ليلة عيده . اين العود ؟

ـ في الغرفة الاخرى . هات لي دفي معك .

ـ وباقي الجـوقة ؟

ـ لا يهم . عندما ترتفع الرنات ، يفزعن ، الواحـدة بعد الاخرى .

ـ ذرحي لنا سيجارة جيدة يا رئيسة الملاح .

ـ تستحق . يا عصفور الجنة .

علا الدخان . عبقت الابخرة . بقبق الابريق على الكانون . طاب الجو . راق الاسترخاء .

اعتدل عصفور الجنة ، في جلسته ، ثم راح يتفقد اوتار العود، بلمسات لينة من ريشته . تسمع ثم تسمع ، حتى اطمأن الى كل الاوتار . جذب نفسا قويا من السيجارة التي قدمتها له رئيسة الملاح ، ثم مررها الى حمود الجيدوكا .
وبـدأ العود يحكي .

ـ الله الله يافريد .

قالت المرأة ، محاولة ان لا تهز الـدف في يدها ، فيتحرك بصوت نشاز . في حين راحت الانغام ترتفع . واصابع عصفور الجنة ، تنقبض وتنفتح ، ورأسه ، يعلو وينخفض ، بينما عيناه مغلقتـان :

ـ يا روح يا روح . روحـي .

أنت في قفار ، الشمس ساطعة ، والحرارة بالغة . تنزل من بطنها على رمل ساخن . تعقك باستعجال ، لتشعرك بان الوقت

يجري اسرع منك ومنها ، وان القفر اوسع منك ومنها . ينبعث من بعيد زئير اسد جائع . يأتي مع الريح عواء ذئب ضامىء . الخطر الماحق يهز كيانك . انت تحاول النهوض . انك تنهض .

الوقت اسرع من الظبية وابنها . والقفار ارحب من عدوهما . هيا انهض . استرق مصات من ضرعها ، ما دامت مستسلمة .

امك تنطلق في البيداء ، زئير الاسد ينبعث قريبا منك . عواء الذئب يسيطر على الريح التي تحمله . ماذا ستفعل ؟

اذا ما انشقت الارض وهيأت لك مأوى ، فانك لن تدخل . الظلمة تخيفك ، والحصر يقتلك .

الزئير يقترب اكثر . العواء يصل بدون ريح .

امك المسكينة ، لا يسعها ان تفعل من اجلك ان عادت الا ان تعطيك لبنا . الزئير والعواء يخيفانها بدورها . ماذا اذن ؟ انطلق فانطلق .

مهما كان الوقت سريعا ، ومهما كانت الصحراء فسيحة ، فانت اسرع من الاسد ، واقفز من الذئب .
سيزأر الاسد خلفك ، وينبطح في موضعك . ستضيع رائحتك في الفضاء ، قبل ان يصل الذئب .

هيا . ثب . ثب . اقفز .

جاءت النساء . اكتملت الجوقة . ترددت انغام والحان مختلفة . امتزج العود والدف ، والاصوات المنهارة مع بعضها . ظل حمود الجيدوكا ، في مكانه حتى صباح الغد حيث وجد نفسه في منامة حريرية ، الى جانب رئيسة الملاح .

شعر بالتقزز . غادر الموضع دون ان يوقظها . بحث على

باباي البوكسور . وجده لبانا في حي مقير ، عرض عليه مشروع الاستيلاء على عرس بغل العنابية ، أجابه :

ـــ الطائر الحر ، لا يتخبط حين يقع .

طاف بمحل العنابية مرات عديدة . حاول أن يدخل فلم يجرؤ . تاق الى حياة النفوس ، الى الوهرانية ، الى الحاج كيان ، الى علجية أيضا .

لم يجرؤ على الدخول ، حل المساء ، كان جائعا . كان خائفا . كان وحيدا .

راحت قدماه ، تجرانه ، في الطريق الى عصفور الجنة . ان لم يكن اليوم فغدا . مهما كان الوقت أسرع ، والبيداء أرحب ، فابن الظبية اسرع من الاسد ، واقفز من الذئب .

ان لم يكن اليوم فغدا .

عندما كان في غرفة رئيسة الملاح ، كان العرس مقاما . العود يترنم . الناي يصدح . الدف يجهش . الاصوات المجهدة تسبح : سيدي . سيدي وعزيز علي ، سيدي سيدي ، وعزيز علي .

الحسابات المتوازية

رن الجرس ، فتحت المعلمة بنفسها الباب ، قدم وفد عنابة . رن مرة ثانية ، قدم وفد تلمسان . رن ، دخل وفد الجلفة . تواصلت الوفود . نزلت البلاد كلها ، شرقيها وغربيها ، ضيفة عليها .

الوفد يتشكل من المعلمة ، وفتاتين رائعتي الجمال ، وخمسة او سبعة أعيان ، يرتدون الألبسة التقليدية ، وفي أيديهم خيازر ، وعلى رؤوسهم عمائم صفراء مشدودة بخيوط سوداء . الهدايا ، كلها تتمثل في قطع ذهبية ، حسب ما قدمت العنابية ، هدية ، عندما دعيت ، وأحيانا كثيرة ، اثمن من ذلك . ان حضور العنابية في حد ذاته ، هدية ، ما بعده من هدية ، لدى من تفهم معنى معلمة لمحل ذي ستة ابواب .

امتلأ المحل بالجمال . بالفتيات الجميلات ، وبصناديق الجمة وقوارير الانيزات وبالاعيان المعممين بالحرير الاصفر ، والخيوط السوداء .

ـ هناك ما يقارب المليونين هنا ، ربحا صافيا .

قالت في نفسها ، ثم اشارت الى خاتم ، والى مساعديه ، والى الحاج كيان باتباعها الى جناحها .

ـ اسمعوا . الغرف كلها . والاسرة كلها ، والكؤوس كلها ، توزع توزيعا عادلا بين جميع النساء .

ـ وجناحك ؟

ـ جناحي ، يخصص للآغوات والبشآغاوات والقيـاد والهزية . آين تريدونهم أن يذهبوا ؟

ـ أطلب ان نضاعف ثمن المشروب ، حتى لا نحرج الضيوف، بالالحاح بالمزيد من الشرب .

ـ فكرة معقولة .

ردت العنابية ، على اقتراح المساعد الاول لختومة ، ثم رأحت تصغي للمساعد الثاني .

ـ انا اقترح أن تحـذف بدلات الاتصال ، بين الادارة والصانعات . كل من يدخل هنا ، يجب ان يعتبر متصلا ، سواء أرغب في ذلك أم لا . والثمن يذهب مباشرة الى الادارة .

ـ صحيح . صحيح .

قالت العنابية ، وعندما شعرت بأن العبارتين ، فلتتا منها ، استدركت :

ـ لا أحد يمنع من الدخول . لقد دعونا الجميلات وعشاقهن. العرس مقام ، وكل من قدم ، مرحبا به ، لا ميز ولا تمييز . العمل

هنا . في الداخل يا ختومة . ان كنتم متيقظين ومستعدين ، لن يجد أحد المجال لركوب راسه ، وان كنتم منحلين ، غارقين في العبث مع البنات ، وأؤكد بالحاح على الجملة الاخيرة ، فان كل ما يحدث ، يكون معقولا . المسألة ، كالمادة ، متوقفة على وجود رجال حازمين . ماذا تقول يا الحاج كيان ؟

— كلامك حق . هكذا تجري الامور عادة .

— ومـــاذا تضيف ؟

— لا شيء . الامور كلها تجري على ما يرام .

— أنت اين تكـــون ؟

— اعتقد ان هدأ ليس بهام . ما دام ختومة ورجاله هنا ، فان وجودي ، وعدم وجودي سواء .

— كيف تقول ذلـــك ؟

— في الاول اكون مع الاطفـــال . في المستشفى ، انوبك هناك . ادفع الهدايا الى العوائل ، ثم احضر ، على الاقل ، عشاء او اثنين . ان عرس بغل ، لا يجب ان ينسينا صلتنا الحقيقية بالمجتمــع .

— وبعد ذلـــك ؟

— والله . لا تحرجوني . بعد ذلك : ربنا ورحمته — كما تقولين — . اذا ضاقت الدنيا بالحاج كيان ، فلا وسعت احدا .

— لا . لا . نريدك هنـــا .

قال ختومة ، في لهجة لا تخلو من سخرية ، فاضافت العنابية

دون شعور منهـــا :

ــ صحيح صحيح .

كانت رنات الجرس تتواصل . وكان قلب العنابية يدق في كل مرة . امتلأ المحل ، بالمدعوات والمـــــدعوين ، وبالزغاريد والقهقهات ، ومختلف الروائح . كانت كميات كبيرة من الذهب معلقة في صدور وأذرعة النسـاء ، وكانت أسنانهن تلمع صفراء بدورها . التفتت العنابية الى خاتم ، ورجته ، أن يتواجد وسط المدعوين والمدعوات ، ثم اغلقت الباب خلفه ، واتجهت الى الحاج كيان ، تطلب رايه النهائي في الامر .

ــ انت صاحب فكرة العرس ، وانت أبصر منا جميعا ، يا عمي يا الحاج كيان .

ــ هربي كل مبلغ من النقود يتجمع ، خارج المحل ، دون ان يعلم خاتم او مساعداه بذلك . انني ارى بعض وجوه تنذر بالشر ، تطوف بالمـــاخور .

ــ انك لا تثق في ختومة ، لا تحبه .

ــ لا اثق في هزي ، ولا أحب هزيا ايضا ، أخشاه نعم ، اما أن احبه ، فهذا غير معقول .

ــ تعتقد ان ختومة يفعلها .

ــ يفعلها ويفعل اكثر منها . قد يقتل الى جانب السطو ايضا . ماذا فعل بدراهم الفيللا ؟

ــ غدا نتسلم الســـيارة ؟

ــ باسم من اشتريتموها ،

ــ وهل لذلك اهميـــة ؟

ــ أسمعي يا عنوبة ، لا ضير ان تقع صانعة صغيرة في قبضة هزي ، أما ان تقع المعلمة ، فهذا لا يعني سوى خرابها ، ان كنت تحنين الى ابناء ، فلا شيء يمنعك من تبني يتيم او اكثر .

ارتمت عليه ، عانقته . لا يزال يحبني « كيونه » لا يفتأ يفكر في ، يرعاني في جميع الظروف والحالات .

ــ ابحث لي عن طفل وطفلة يا الحـــاج ، وسأكون اما حقيقية . ستتولى انت تهريب الاموال والهدايا يا حاج .

ــ لا . لا تحرجيني . ورائي مهام اخرى .

ارتفعت القصبة ، متأوهة . علت الزغاريد . تلثم المغني بشاشه . تراقصت اصابعه على البندير ، انطلق يذرع البهو الفسيح ، تواصلت الزغاريد ، برزت الأجساد الرشيقة تتلوى شبه عارية .

ــ بات خويا بات .

ــ « هذه الف ميتة من عند صاحب العصا ، على راس العنابية ، وكل المعلمات ، وعلى راس حياة النفوس ، وحدها ، وعلى راس الزغاريد اذا حيوها » ــ .

اعلن الشياد (١) عن المبلغ الذي افتتح به القروي الحفل .

---

(١) ـ الشياد من يقوم باعلان النقود المعطاة للمغني الذي قد يقسمها مع اصحاب العرس ، حسب الاتفاق . الاعلان يكون بعبارات محفوظة منمقة فيها مدح للمتبرع واستفزاز لغيره . وفي الفصيح ، شاد أو شيد للبنيان وللصلى ، وللتضميخ بالطيب .

سرت حياة النفوس ايما سرور . انها اول من يذكر اسمها ، وسط كل هذه الجميلات اللاتي تدمن من مختلف الجهات . سرت العنابية ايضا لحضور هذا القروي ، فرغم أنه كان سلم عليها ، فانها لم تنتبه الى وجوده سوى الآن ، مع انها تعلق عليه ، اهمية كبرى . لقد دعته بالحاح ، وطلبت منه أن يحضر هو وأصدقاؤه ، خشية ان يحاول خاتم الانتقام منه ، فطمانها ، الى ان خاتم هذا ، لا يعني بالنسبة اليه سوى ولد صغير مشاغب تؤدبه العصا بسهولة .

ـ تعال هنا يا صاحب العصا تعال . كنت ابحث عنك .

طلبته حياة النفوس . التفت الجميع اليها ، كانت ساحرة . ساحرة بحق . اكثر الحاضرات لطفا ورقة ، واكثرهن ، جاذبية واثارة لرغبة التواجد قربها . ليس فيها شيء ، من ملامح نساء المواخير . الطيبة والبراءة وحياء العذارى ، في بسمتها . لم يخطىء من اطلق عليها هذا الاسم ، حياة النفوس .

فكر الجميع . شعرت انها محط الانظار والاعجاب ، تورد وجهها لسبب ما .

صدحت القصبة ، بلحن عال ، رفع المغني البندير الى وجهه، يرد الصوت ، ثم راح ينادي من سويداء قلبه ، « يا جبل بو خضرة، يجيك الطليان ويكسر حجرك » .

ـ المعلمة كلفتني أن اطلب منك ـ ان جئت مع اصحابك ـ ان لا تتركوا الهزية يفسدون عرسها .

ـ وانت ماذا قلت ؟

ـ ماذا تريد ان اقــول ؟

ـ هل تتزوجينني ؟ انت يا حلوة الحياة لم تخلقي لهــذا المكـــــان .

ـ ما دمت خلقت للرجال ، فانا هنا او في مكان آخر ، امراة . ابق انت معي هنا افضل .

ـ انني جاد في عرضي يا حلوة الحياة ، ولا تنسي انني لا اتردد عن اختطافك بالقوة .

ـ بعد العرس يعمل الله طريقا .

ـ « بات يا ولدي بات » .

ـ طمئني العنابية . قولي لها ، صاحب العصا وجماعته ، مستعدون لحماية حلوة الحياة وما تبعها .

ـ هذه الف ميتة ، من عند النايلي ، على راس ، العنابية وصاحباتها ، وعلى راس ياسمينة البليدية ، وحدها . وعلى راس الزغاريد ، اذا حيوها .

انطلقت الزغاريد . امتلأت نفس العنــابية بالرضى ، خيل اليها ، انها سيدة ، ام رجال ، وصبايا ، مراحها عامر بالاغنام والابقار والرعـــاة .

برزت ياسمينة البليدية الى البـــــهو ، عندما اعلن عن اسمها . كانت ربعة ، ممتلئة ، حيوية ، مرحة ، مثيرة .

راحت القصبة ، تستميت في التعالي ، وقف المغني على رجل واحدة ، مسندا بنديره الى راسه ، وواصل « واش نهدي لخـــالي » .

تواصلت الحفلة الاولى من العرس ، عم الانسجام الجميع،

كانت قوارير البيرة ، وكؤوس المقطرات تتسرب بقوة وبسرعة . كانت الدراهم تتهاطل بالالف ، كلما فتح المغني فاه ، وكانت العنابية وخاتم ومساعداه ، والمغني وقصابه ، وآخرون ، يعدون كل من جهته . وكل بدافع معين .

ـ ثلاث او اربع ليال هكذا . استعبد « الفيللا » اربع مرات . ليس ضروريا أن أهرب الدراهم الى الخارج كما أوصى الحاج . انما اضعها كلما تجمعت في الخزينة ، مع المجوهرات والحلي . الجو حسن على ما يبدو ، ثم ان الاحتياطات المتخذة ، كافية . الحماية المتوازية التي نصبتها تكفي . صاحب العصا وجماعته من جهة . خاتم وجماعته ، من جهة . ثم سزي جاء في وفد كلف من جهته بالحماية . ثم ماذا ؟ في آخر الامر ، هناك الشرطة . انني برخصتي ، وبسجلي التجاري ، وادفع الضريبة اذا لم تحمني الشرطة ، فلماذا هي موجودة ؟

الباطن والظاهر

عندما وجد الحاج كيان نفسه خارج الباب ، بصق خلفه ، كان الشعور بالتفاهة والحقارة ، يملأ قلبه . البضاعة في الداخل، مكدسة ، شرائح شرائح . لا احد يشعر بعفونتها ولا بنتانتها ما دامت تدر نقوداً فهي جيدة ، لا شيء رديء في هذا العالم الا ما ليس له قيمة تجارية .

تفـوه . تفـــوه .

قصد راسا المستشفى حيث الاطفال يختنون . كانوا صفا طويلا مع آبائهم وامهاتهم وبعض ذويهم ، بعضهم يبكي وبعضهم يضحك . الكبار كلهم يضحكون . الاكياس والرزم في أيديهم .

يتعشون الليلة ، كسكسا بالدجاج . سيشبعون كلهم ، لحما ومرقا . بعضهم سيثني على المحسن او المحسنة ، بعضهم سيثني على جميع الاغنياء المحسنين .

ستنبعث الزغاريد من اربعين بيتا في حي الفقراء ، معلنة

ان الكسكسي بالدجاج يعد للعشاء .

فرح صاحب الحشيش الواقف قبالة الصف ، ممسكا قائمة الاطفال المتفق عليهم ، عندما راى الحاج كيان . ناداه ، قصد اليه بخطوات متثاقلة ، سلم عليه ، راح يحاول ان يعطيه الارقام والحسابات ، والتكاليف .

ـ لا . ارجوك لا . كل ما تفعله جيد وحسن .

ـ أريد ان اقول ان هناك اربعة آلاف بقيت زائدة عن الحساب .

ـ لا يهمك . اصحابنا لا يحاسبون عن الاربعة آلاف . اشتريها « حلوى الترك » ! .

التفت موليا بسرعة ، ولم يكد يقطع خطوات قليلة ، حتى وجد نفسه يبصق .

ما هكذا اراد حمدان ان يقرمط بين الناس . هذه قرمطة زائفة ، وطريقة انتهازية للعطاء ، وللتلقي . تفوه . تفوه .

أسرع الى محل صاحب الحشيش ، طلب سلته من الغلام وام المقبرة .

كان الجو ثقيلا ، مشحونا بالحرارة والذباب . شعر بالارهاق في الطريق .

كثرة الزيارات والجلسات ، جعلتني اتعرض للارهاق بسرعة . عندما اكون في الداخل ، انسى التعب . لعلني اكون هذا المساء هارون الرشيد . قد اكون ابن السعود او بولغانين . لماذا هربت من الأعراس ، من الغناء والطرب والقهقهات الرنانة ، ومن الفرحة على وجوه الفقراء وجئت الى المقبرة .

لا شيء من الاعماق . كل ما هنالك عرس بغل ، اعراس بغل في حجم الكرة الارضية . كلهم ، كلنا . نهرب الى مقبرة ، كل من فيها ميتون الا نحن . الحياة . حياة الآخـرين المرتبطة بحياتنا ، لا تهمنا . لا تهمنا الا بقدر ما تكون مقبرة . لا . لا . هذا كلام لا معنى له . كلام غير مستقيم ، يمليه التعب .

ها انك قد وصلت . اهلا وسهلا بك في مدينتك ، يجدر بك ان تكون « افلاطون » هذا المساء . قد اكون من يدري ؟ .

الرائحة تنبعث . الحمار المسـكين مات . ذباب الموت استعاد نشاطه ، بعد أن جفت عظام الاموات هنا .

تأمل الحاج كيان ــ كالعادة ، الوضع وهو عند الخق : السماء صاحية ، الريح جنوبية شرقية . في الاسفل كل شيء على ما هو . لا جديد .

انزل السلة . تسلق اغصان التينة . نزل الى الصخرتين ، ثم الى التمر . اسرع الى مغارته الصغيرة بين الصخرتين ، بسط ادواته . ملأ غليونه ، اضرم فيه النار . تصاعد الدخان ، علت الابتسامة شفتيه ، انشرح صدره .

لو ان نيتها صادقة . العنابية ، لو انها ما كانت تكون معلمة . تستمر معلمة على الاقل . لكن لا بد من معلمة ، لا بد من واحدة ، تمتلك او تسير الماخور . لا بد من عاهرات ، ومن هزية ، ومن زبـائن ؟

العنابية اذن صادقة ، فيما تفعل . انها تفعل ما يفعله جميع الناس ، بشكل او بآخر . تبيع الخبز ، او الحشيش ، او الجنس ، او الموت ، او حلوى الترك .

الامر سيان . هذا هو النظام .

وانت في كل ما تفعل ، اما مسلم او مسيحي او يهودي ، او بلا دين . الامر سيان .

لا احد يقول « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ؛ ولا احد يشرح « وما غنمتم من شيء فلله خمسه » او يحاول اقامة الالفة . حمدان قرمط لا يذكر آلا باللعن ، وكل ما هنالك ظاهر بلا باطن . اعراس البغل فقط ، لها باطن وظاهر .

الرحلة بدات .

هات البلغة يا حمدان قرمط . ان لم نترمط بين الناس فلا اقل من ان نترمط بين ظاهرنا وباطننا .

لا اريد خولة اليوم ، الماخور مليء بالخولات . وبالمتنبيين ايضا . اريد براقا ، يستطيع في ثوان ان يحد الفضاء .

هنالك نسيت ذات مرة ، بسمة صادقة ، اريد ان اتأملها لحظة قصيرة واعود .

البراق لم يحضر . الابعاد تتشكل ، السماء ترقص ، الارض ترقص . عرس بغل يقام عندي ايضا . آه ، لقد بدا المدعوون يصلون . اهلا اهلا .

— انا شمس الدين محمد . حافظ . حافظ القرآن .

— اهلا اهلا . وكيف لم يعكس شعرك فعلة جلال الدين شاه شجاع بابيه . ايعقل ان يوجد شاعر في ظل ملك سمل عيني ابيه والقى به في السجن ؟

— انا كنت اتغنى بالربيع وبالجمال وبلذة الحب . كانت روحي متصلة بالفضاء الارحب .

— كنت في عرس .

ـــ نعم في عرس .

ـــ عرس بغل ما في ذلك ريب .

ـــ وما الحياة ســوى ذلك ؟

حدثت ضجة في الاعلى ، قطعت عنه الرحلة ، شـعر بخوف شديد . خشـي ان تكون الارض زلزلت . سقط الغليون من يده . لم يرفعه . ظل ينصت ، وقلبه يدق بعنف ، واوصالـــه ترتعد بشدة . ماذا هنالك . هل داهمت الشرطة المقبرة ؟ هل خاتم السافل ، وشى بي . لا ، لن أذهب الى السجن .

كانت الضجة تتواصل . لم يتمكن من تمييزها .

هذه ضجة ظاهرة وليست باطنـــة . انني اسمعها ولا اعيشها . لاطل . لار ما هنالك .

نهض . لم يتبين شيئا . الخق اطول . تمسك باغصان التينة ، صعد على الصخرتين . لفحته نسمة . لا يدري من اين فلتت في هذا الجو الثقيل . لم يتبين شيئا . الضجة في الاسفل . لأصعد . الخق . لأول مرة تدب الحياة في هذه المقبرة . وجد نفسه في الاعلى . التفت الى القعر ، بان له ابعد مما كان يتصور . لا يستطيع احد النزول اليه الا بسلالم وحبال .

اكنت حقا هنالك ؟ ما هذه الضجة يا ترى ؟ لم يتبين شيئا . اذا ما تقدمت اكثر تجلت لي .

وتجلـــت لـــه .

عدة اسود تتقاتل على جثة فيل ! في اي عالم انا يا ترى ؟ لفحته نسمة اخرى ، شعر بشيء من الحيوية تدب فيه . تأمل الاسود والفيل . كانت تصغر وتصغر . بدت له نمورا ، عنــد

جثة بغل ، ثم كلابا عند جثة حمار .

ابتسم . الحمار المسكين ، ماذا فيه يؤكل . مع ذلك الكلاب منكبة عليه بكل حماس . لم يفكر في الالتفات الى الخلف ، جرته قدماه الى الانحدار . فكر ان يحمل حجرة يرمي بها الكلاب ، الا انه لم يجد الفرصة لذلك . كان قد غادر المقبرة . وكان الوعي قد بدأ يعـــاوده .

العنابية في حاجة الي . الوهرانية ايضا . حياة النفوس كذلك ، كل البنات في حاجة الي . ما دام العرس مقاما ، فلا بد من حضوره . كل الاعراس ، عرس بغل ، ولا داعي للهروب منهـــا .

هذا هو نظام الحياة . انه فاسد في اساسه ، وفي حاجة ملحة الى حمدان ليترمط بين الناس ويترمط ، حتى يقيم الالفة ، ويذيقهم جميعا طعام الجنـــة .

سأنتظره هناك ، وساكون عبدان ، بـــل زكرويه بن مهرويه الدنـــداني .

التفت الحاج كيان الى الخلف . بصق ثلاث مرات ، ثم واصل ألانحدار . كان في الاول ، محني الظهر ، حذر الخطو ، ثم بدأ يستقيم ، ويسرع في المشي ، شيئا فشيئا .

سارقص . ارقص لهم ولنفسي . ارقص مع العنابية وعلجية وحياة النفوس والوهرانية ، رقصة « جيناكم زوار قاصـــدين الدار . على الباب الشرقي » .. بل ، ساغني ، سانتزع البندير من المغني ، بعد ان اضع كاس بيرة بين يديه ، واغني اغنيـــة عيسى جرموني : « عينيك والشمس بي الاثنين طلبوا هلاكي » سأسحرهم بصوتي كما سحرت شيخ التجويد .

بدأت الزغاريد تقوى كلما تقدم الى الامام ، وبدات البهجة

تعود الى نفسه كلما تصور انــه سيغنني . ينبغي ان لا تعدم الحياة شمس الدين محمداً ، اذا ما عدمت حمدآن القرمطي . حتى وان سمل السلطان مليون عين .

تسابقت الوهرانية وحياة النفوس نحوه . هاتفتين :

ـــ عاد . عاد الحاج كيـــان .

امسكتاه من يديه وقادتاه الى البهو .

ـــ هذا الحاج كيان الذي كانت الوهرانية قد اماتت عشرة آلاف كاملة باسمه .

قالت حياة ألنفوس ، في حين تقدمت العنابية منه . قربت وجها من اذنه ، كأنما لتهمس له بسر ، ثـم صدحت بزغرودة حارة ، اهتز لها قلب الحاج كيان .

التبخـــر

سأجند اربعة او خمسة . اقتحم بهم المحل ، كل واحـد يقف في باب ، شاهرا خنجره . أتقدم منتفخ الصدر الى المغني ، أضع يدي في قلنسوة برنسه ، اخرج ما هنـالك . اوزع على انصاري النقود ، ازار ان كان هناك من لم يرق له عملي هذا . من له اعتراض او راي آخر . اذا ما تكلم خاتم ، او حاول التدخل، احمله من صدره بأصبعين اثنين . اصفعه صفعتين ، ثم امده الى واحد من مساعدي ، يفعل به ما يطيب له . اذا حاولت العنابية . او غيرها ، اثارة اي مشكل ، نطفىء النـور ، نهجم على من يصادف ، نجرد النسـاء من حليهن وننطلق بعد أن نخلف مندبة وننصرف . ننصرف ، بعد أن آخذ معي حياة النفوس .

هكذا تتعلم العنابية ، معنى طرد حمود الجيدوكا من محلها، بعد ان خدمها مدة طويلة بنزاهة واخلاص .

ظل حمود الجيدوكا ، يقرر ، وهـو في طريقه الى مشرب عصفور الجنة . متجاهلا المراة التي بات معها ، في عرس حزين..

لا ، ذلك لم يكن سوى حلم . كابوس مزعج لا غير . انا

ما بت هنا اطلاقا ، بل ، انني لم اجيء الى هنا سوى اليوم .

ملأ مدخل المشرب بجسمه المترهل ، استقبلته رائحة البخور ، تساءل :

— انت هنا يا عصفور الجنة .

لم يجبه احد . قصد كرسيا ، كان يشعر بحاجة قوية الى الجلوس .

— أنا قادمة . انا قادمة .

اتاه صوت نسائي من الخارج . عجب للأمر ، أين يكون عصفور الجنة يا ترى ؟ ايكون المسكين مريضا ؟

— اهذا انت ؟ لم ار وجهك . لماذا لم تسلم وانت مار ؟ كيف انت ؟

قالت المراة محتجة ، ثم انحنت تطيل عنقها نحوه . فهم انها تحييه تحية عائلية ، وانها كانت قلقة من اجله .

— كيف حال راسك ؟

— بخير ، على ما يرام .

— البارحة غصت بسرعة . يبدو انك غير متعود على الرحلات الطويلة .

— لا الطويلة ولا القصيرة . انا رياضي . تعودت الوثب والقفز ، والنبيذ الاحمر .

— ستتعود بسرعة . الرحيل معنا ، وستكتشف كل ليلة جديدا . هاك سيجارة « كمال » .

— واين عصفور الجنة ؟

ــ في العرس يا سيدي . في عرس بغَل ، ارسل اليه الحاج كيان والعنابية يدعوانه . استدعتني بدوري ، لكن قلت لها : لا ياكل قيئه سوى الكلب .

ــ ولماذا ذهب عصفور الجنة ؟

ضحكت المراة متعمدة أن تكشف عن اسنان فمها الذهبية ، وغمزت بعينهـــا :

ــ عصفور الجنة ، كل ما يحيط به جنة . يعينهم . ويصرف بعض بضاعته يا حمود .

ــ الا يخاف ؟

ــ وممن ؟ انه يشتغل معهم ايضا . عصفور الجنة ، وكيل رسمي لجميع الهيئات والمؤسسات والتجارات . حتـــى للجنـــة ها هأ .

تفاقمت رائحة البخور ، بدا الانسجام يعود شيئا فشيئا الى ذهن حمود الجيدوكا . فكر أن كل ما هو خارج المشرب بعيد جدا ابعد من الواق واق ، ومن الثلث الخالي ، وانه ليس هنالك اي دافع ، في مثل هذا الوقت لمحاولة الخروج . ان الغرفة المظلمة، المعطرة بروائح البخور ، تعمق شيئا فشيئا ، وكلما عمقت شدته اليها اكثـــر .

السيجارة خفيفة نوعا ما ، لكن الرحلة تبـــــدا جميلة . هادئة وجميلة . تبدا كالنقاهة من حمى لازمت شهرا كاملا بأيامه وليـــاليه .

ــ لقد سال عنك ايضا .

ــ من ســـــال ؟

ــ مبعوث العنابية . قال انها قلقة عليك .

ــ ضربتني بالهراوة على قفـــاي . قضيت ثلاثة ايام في الفراش مصروعا . ضربتني من اجله .

ــ المشقة صعبة يا حمود يا خويا .

ــ صـــعبة .

انهمرت الدموع من عينيه . افسح لها المجال .

تتحمله تسعة اشهر . تشعر نحوه بالحنان طيلة التسعة اشـهر . تجسه الف مرة في اليوم . ليلة المخاض تستسلم للموت . تموت وتموت حتى يبرز صارخا ، ترضعه ، حتى يشبع ، تقبله ، تلثمه . يدق قلبها وتبكي . تغمض عينيها ، وتضع كفها على فمه وانفه . يتخبط ويتخبط . لا يموت . تمتـــد يدها الاخرى الى عنقه . يستسلم . تضرب خديها ، ثم تلفه وتسرع به الى برميل القمامة . في الغد يلقى عليها القبض ، ترسل الى الســـجن ، لتظل تتحســــر .

هذا قدرها ونصيبها . قدرنا ونصيبنا جميعا .

ــ وحد الله واستغفره يا حمود .

فتح عينيه . كانت تناوله السيجارة بعد ان سحبت منهـا نفسا قويا . تاملها . يا حياة النفوس ، لم لا تكونين معي ، الا وانت طيف . تريدين ان اتحول ايضا الى طيف . لحظة وآتيك .

ها انني معك هيا بنا . هيا نسبح في الافق الرحب ، خلف نجوم الحرير الوردية .

ــ انبقى هنا ، أم نذهب الى الدار ؟

ــ كما تشاءين .

سقراط يفسد حسابات خاتم

عند منتصف الليلة الثالثة ، وقف خاتم في البـــهو ، وامر الجميع بالسكوت والانصات اليه :

ــ اسمعوا . نريد حياة النفوس . لن ترقص الآن سوى حياة النفوس . اسمع يا شياد . هذه عشرة آلاف ميتة على راس حياة النفوس .

دهش الجميع ، خاتم الذي لم يظهر طيلة اليومين والليلتين، الا بمظهر العاشق المتفاني في حب العنابية ، يصرخ الان متحديا ، يطلب حياة النفوس .

ــ البنت تعبة ، لم تسترح ساعة واحدة منذ بدأ العرس . ماذا تريد عندها ؟

قالت العنابية ، مكشرة ، فأضافت حياة النفوس :

ــ انا مريضة . جسدي كله ميت . انا لا استطيع .

ــ لا . حياة النفوس ، يجب ان ترقص .

هتف خاتم ، راح الجميع ينظرون الى بعضهم . هـــذا

استفزاز وليس طلبا . الولد جن ، نهض القروي ، تقدم بعصاه ، ووقف مترنحـــا :

ـــ حياة النفوس لا ترقص . ومن لم يرقه ذلك ، يرقص هو بنفسـه .

ـــ اتتحداني يا مغفل . معي هنا عشرة مساعدين .

لاعم الفتى القروي ذراعه ويده مع العصا ، وراح يتخير من اين يبدأ . اذا ما ضربته عند الدماغ يسقط ميتا حـــالا . اذا ما ضربته في القفاء يفقد وعيه . المعركة يجب أن تطول . جولة واحدة ويســــقط .

وثب اثنان من مســاعدي خاتم . امسكاه بقوة من ذراعيه ، وراحا يدفعانه خارج الحلبة .

ـــ أنت سكرت . اهذا هو اتفاقنا ؟

ـــ لا لم اسكر . دعاني . لم اسكر . أريد أن اقول للعجوز الشمطاء ، العنابية ، انني لم اعد لها ، منذ هذه اللحظة .

صعقت المعلمة . ترنحت . أسرع اليها الحاج كيان وبعض النســاء . همس الحاج كيان في اذنها :

ـــ هذه هي الخطة على ما افهم . سيحملونه الى جناحك ، وهنالك يستدرجك الى فتح الخزانة ، لكن لا تكترثي ، لقد رتبت كل شيء ، حسب توقعات مضبوطة .

ـــ هاتي يا المعلمة المفتاح ، يجب ان ينام .

قال احد مســاعديه ، فردت المرأة :

ـــ لينم في الشــارع .
ـــ انه خاتم يا معلمة .

قال الآخر . في حين تمتم خاتم :

ــ يظهر انها ادركت المسألة : انه ستراط صقر الكلب . مر الجميع بالشروع في العمل ، سنجبرها على ان تناولنا كل ما عنــدها .

ــ لماذا لا ننتظر ليلة اخرى ؟

ــ الليلة والا فلا . غدا ينصرف معظم المدعوين ، ثم ان صقر الكلب هنــا .

ــ ان لم تخرجا به ، طلبت الشرطة . لا اريد مشاكل اطفال عندي . محلي محترم .

اضافت العنابية ، في حين رفع القصاب انغامه ، يدعو الى رقصة جديدة ، لتسرع حياة النفوس الى الحلبة ، وترمي الشال الوردي الذي كان على كتفيها .

اتجهت الانظار بسرعة اليها . كانت بحق وللمرة المائة التي تظهر فيها على الحلبة ، اجمل من يضـــم العرس . القوام . العنق . العينان ، اللون الابيض الضارب الى الحمرة . الحيوية الفائرة من كامل جسدها المتماسك القوى . أكثر من كل ذلك ، البراءة الطفولية التي تطفح من نظرتها ومن بسمتها .

ــ يا روح يا روح . روحي .

هتف احدهم ، فتشجعت ، وراحت تغالب الاجهـــاد الذي يعتريها . الرقصة خفيفة ، تتطلب حركة سريعـــة من الجســـم كله . الانتقال رشيق وسريع ، اليدان تظلان مرتفعتين . الصدر ، يحافظ على الاهتزاز القوي ، الخصر والكشح ، يلازمان التلولب ومجاراة حركات الجسم بكامله .

لقد رقصت اكثر من مائة مرة منذ بداية العرس . لم تكن تتعب على كل حال ، ذلك انها لا تطيل ، ولكن الرقص الى جانب استقبال الطابور الواقف عند الباب شيء مريع . استقبلت اكثر من مائتي رجل . شيء ، فظيع ، لم يحدث في تاريخ امراة قط . كل ما فيها ممزق او ميت .

ماذا يريدون عندي ؟ بم امتاز عن باقي النساء . لا كنت ولا كان الجمال . ولا كانت الرجال . غدا اقول للفتى القروي انني موافقة ، اشترط ان نقطع العالم في قطار . نظل ونبيت ونصبح في القطار ، سائرين ، دون حاجة الى نزع ثيابنا ، او ابدالها ، او الى الاستقرار في فراش واحد زمنا طويلا .

— قلت لكم الان او فلا ، دعاني ، وانصرفا الى مركزيكما .

اصدر خاتم الامر ، ثم تخلص من مساعديه ، واسرع الى البهو حيث تقف العنابية ، وبعض النساء .

— « بيت » ، اسكتهم والا طمنتك .

اصدر الامر للشياد الذي لم يجد بدا من الهتاف :

— بات يا ولدي بات .

سكتت القصبة ، هدا البندير ، توقفت حركات حياة النفوس، تنفست من اعماقها . التفت الجميع الى الشيـــــاد منتظرين ، الاعلان ، عمن قطع هذه الرقصة الجميلة الربانية ، بطريقة غير لبقـــة . كان في الامكان وضع المبلغ بين شفتي ، الراقصة او في حـــزامها .

— اسمعوا . القاعة ممتلئة بنا . هذه خناجرنا ، وهذه اسلحتنا . كل ما نطلبه ، هو ان يضع الجميع ، رجالا ونساء ، كل ما يمتلكون من نقود او حلي ، بما في ذلك العنابية . وخزائنتها ،

وما جمعته منذ اول امس من مال وذهب .

لم يكد خاتم يتمم عبارته ، حتى هوت الهراوة على قفاه بضربة قوية . ترنح ، سقط . برزت جماعة متفرقة هنا وهناك ، تحمل العصي والهراوات ، بينما برزت جماعة اخرى . تحمل الخناجر والمسدسات .

ــ المسألة كما قدرت .

قال الحاج كيان ، ثم اصدر صرخة كان اتفق عليها مع جماعة اخرى . برز عدة رجال في البسة مختلفة وراحوا يطمئنون الجميع .

ــ كل شيء مرتب على احسن ما يرام . لا تخشوا شيئا . انتم في الامان التام .

انطفأ الضوء . ارتفع الضجيج . ارتفعت صيحات هنا وهناك . انطلقت رصاصة ، تشق الظلمة ؛ امتلأ الشارع بصفارات الانذار .

بومرداس في ١٢ــ٩ــ١٩٧٥


Bibliotheca Alexandrina
1030277


منشورات صلاح الدين القدس